كالتي هربت بعينها

جماعة "الأمر" وتشكل الذات المغلّفة

باسمة القصاب

في الفيزياء نظرية اسمها

"أثر الفراشة"

"لو أن فراشة نفضت جناحها في طرف العالم،

قد تسبب اعصاراً مدوياً في الطرف الآخر من العالم".

"أحب هذه الفراشة ترفرف زاوية حقيقة"

توماس ترانسترومر

كل تجربة فراشة

اهداء..

لكل ذات عينها جماعتها..

هذا الكتاب

سيرة فكرية، لتجربة عمرها 16 عاماً انتهت في فبراير 2004.

عشت هذه التجربة داخل الرحم الرمزي لجماعة "الأمر" المعروفة بجماعة " السفارة" [1]، بالقدر والكيف، الذي شكَّل ذاتي الفكرية والاجتماعية بدرجة كبيرة، ووجهها نحو رسم تصورها الخاص لنفسها وللعالم. تلك الذات التي أدّعي أنها ربت وتربت داخل هذه الجماعة، منذ أن بدأت اندفاعها نحو اكتشاف ذاتها، وفي أوج حركتها لتكوين وعيها الديني، وتوجهها لتصنيف نفسها، ضمن نظام تنتظم فيه اضطراباتها المعرفية والفكرية.

كانت هذه الذات تبحث عن حركة دينية تحمل أفقاً مختلفاً عن كل من حركتي "الدعوة" و"الجبهة"، حيث كانت تلك الحركتان –باعتبارهما الأقوى حضوراً في التيار الديني الشيعي البحريني في ذالك الوقت– محلّ تحفظ نسبي بالنسبة لي.

فيما عدا العامين الأخيرين قبل خروجي، كنت على انسجام تام مع أفراد هذه الجماعة وأفكارها ومعتقداتها، وكنت أعيش اكتفاءاً بها عن كل ما سواها، وكان انتمائي لها ووجودي فيها، يمنحني إشباعاً عاطفياً ونفسياً واجتماعياً وفكرياً من نوع خاص، مما جعل حضورها عندي، يفوق – رمزياً– حضور عائلتي التي أنتسب لها بالدم والأصل.

لم يكن خروجي عن هذه الجماعة ناتج عن خلاف شخصي، بل نتج عن تحول معرفي، حوَّل مفهومي للحقيقة المغلّقة، وفتح باب حقيقتي على مجموع حقائق العالم، فابدل تصوري للعالم والإنسان، كما أبدل علاقتي بالجماعة (بالمفهوم السوسيولوجي للجماعة)، مما يجعلني أنظر لهذه الجماعة الآن، باعتبارها تشكيلاً اجتماعياً دينياً خاصاً يستحق الدراسة والتأمل والقراءة.

وباعتبار النظرية الفيزيائية التي تقول، أن فراشة تحرك جناحها في مكان ما هنا، قد تسبب إعصاراً في مكان آخر من العالم، فإني أرى إلى تجربتي مع الجماعة أنها فراشة، ضربت بجناحها طويلاً في حياتي، وأحدثت آثاراً بارزة في تكويني الشخصي والفكري والاجتماعي، لم تترك عندي مخلفات إعصارية مدمَّرة للذات والشخصية، إلا أن لها آثاراً هامة وخطيرة بالقدر الذي تستحق أن تقال لتعرف.

لست أسعى إلى عرض تفاصيل تجربة شخصية هنا، بقدر ما أحاول فهم ذاتي التي تشكّلت عبر هذه الجماعة، أحاول فكّ رموز هذا التشكيل وفهم تداخلاته المعقّدة والمتشابكة. أنطلق إلى ذلك، من خلال أفقي المعرفي البسيط الذي خرج عن أفق الجماعة المركّب، ومن خلال ذاتي الصغيرة التي خرجت عن غلاف الذات الجماعية الكبيرة.

ما معنى الاسم الرمزي الذي اخترته عنواناً لهذه الحلقات (كالتي هربت)؟ ستعرفون ذلك في نهاية هروبي.

هامش

[1] استخدم هنا اسم جماعة "الأمر" للجماعة التي اشتهرت وعُرفت محلياً باسم جماعة "السفارة"، حيث الأول هو ما تُعرِّف به الجماعة نفسها وترى نفسها من خلاله. للتفاصيل عن تكوين الجماعة ونشأة فركتها يمكن الرجوع إلى الملحق المرفق في نهاية الكتاب، تحت عنوان "سيرة جماعة الأمر" للزميل حسين مرهون الذي نشر في صحيفة الوقت إثر نشر الحلقات.

ما لا بد منه..

قبل الولوج في الهروب

كأي خروج سبق وأعلن عن نفسه، متحدثاً عن تجربته مع هذه الجماعة، جاءت التوقعات – كما بدا من خلال التعليقات التي تلقيتها– تنتظر من تجربة الخروج الجديدة، عرضاً مشابهاً لما سبقها من تجارب، في طريقة روايتها ورؤيتها للجماعة، وإن اختلفت بعض تفاصيلها.

لعل الكثيرين ممن اهتموا بقراءة التجربة ومتابعة حلقاتها المنشورة في صحيفة الوقت البحرينية في الفترة ما بين 22 مايو 2006 حتى 4 يونيو 2006، كانوا يتطلعون إلى أن يجدوا إشباعاً خاصاً من نوع خاص، يختلف باختلاف اهتمام كل منهم. قد يغذي هذا الإشباع جانب من جوانب نهم القارئ المعرفية أو النفسية أو الاجتماعية أو الدينية أو العقائدية، فلكل قارئ عين، ولكل عين حال، ولكل حال سؤال.

لكن، ربما كانوا هم الأقل، أولئك الذين تطلعوا لما يعتمل في نفس الكاتبة أثناء كتابة تجربتها، بدلاً من أن يحصروا توقعهم جهة ما يعتمل في أنفسهم، فيخيب أسفاً أفق توقعهم. الكتابة أفق خاص يَمتَلِك ولا يُمتَلَك. الكتابة التي يملكها صاحبها لا يعول عليها. تسيّرك الكتابة فلا تملك غير الانصياع لها. لست مخيراً في توجيه ما يتدفق منك. أنت تفتح شقّك للكتابة. فتأخذك هي إلى حيث تكشف دواخلك وتعريها. إلى حيث تريك نفسك وتجربتك وجماعتك ومجتمعك.

وحدهم القراء الذين فتحوا شقوقهم على شقوق التجربة، تمكنوا أن يعيشوا حيرة الخروج من الغلاف، أي غلاف كان. ذلك العصر النفسي والعصبي والفكري الذي يتحرك في عمق ذات قضت 16 عاماً من عمرها في سلطة غلاف. محاولة فكها لرموز تشكيلها وأغلفتها الذاتية. فهم تجربة على قدر كبير من التركيب والغموض. شيء ما يريد أن يُعَبِّر عن نفسه. يَعْبُر نحو الآخرين. أسئلة تضطرب في الداخل، لا يمكن أن تهدأ مالم تخرج، ما لم تطرح نفسها في قراءة عميقة للتجربة.

بالكتابة كنت أحاول أن أجرّح أغلفة الذات المتشكلة غلافاً غلافاً، أن أتخرقها وأخترقها. في كل حلقة كنت أحاول أن أفك أحد أغلفة ذاتي الجمعية، التي نمت في داخلي طيلة هذه السنوات (غلاف الأمر المقدس، غلاف النص، غلاف الرحم الحاضن، غلاف المخالطة والمزايلة، غلاف الفاضل والفضالة، غلاف الذات والجماعة، غلاف القسم،...).

لم أكن حتى وقت بدأت كتابة هذه التجربة قد انفككت من فهم آليات تغليفي، وإن كنت قد انفككت من سلطة غلافي [1]، لم أكن قد فهمت كيف تشكلت. كنت بحاجة لأن أغوص

عميقاً في ذاتي، أن أصل إلى بعض إجابات (لا كلها)، أن أفتح سؤالاتي على عواهنها، لم أسع إلى تحصيل إجابات فورية وسريعة، فأكون كمن خرج من غلاف ليدخل في غلاف جاهز آخر.

حتى أنفك من سلطة الغلاف كان لا بد لي من تفكيكه، وهذا ما حاولت أن أفعله في هذه الحلقات.

التفاصيل الصغيرة حول الجماعة، التي يلح علي بسردها الكثيرين، هي أبسط ما يقال في هذه التجربة، هي المتناول المحدود السهل. بينما أعقد ما يكتنف التجربة هو ما داخل الذات، لأنه الأصعب في الفك، الأصعب في الفهم، الأصعب في التغيير، الأصعب في الخروج. لذا اخترت إسم تجربتي "تشكلات الذات" ولم أختر إسماً مثل "سيرة الذات". الحديث عن تشكيل الذات هو محاولة لفهم السيرة وقراءتها، وليس لسردها أو روايتها. ومع ذلك لا تنفك قراءتي عن تقديم جانب سردي أحسبه يمثل جوهر ما عشته في تجربتي.

تجربتي كما أقدمها، هي قراءة داخل الجماعة من داخلها (حيث كنت)، وقراءتها من خارجها (حيث أنا الآن)، وربما تكون القراءة ذات الوجهين تلك، هي الجديد الذي تقدمه هذه التجربة عن مثيلاتها من التجارب السابقة.

هذا الجديد ليس يهاجم وعي الجماعة؛ بل يسائل لا وعي حلمها، وليس يتهم الجماعة؛ بل يستنطق مسكوتات بحيرتها، وليس يقول عنها؛ بل يقول إلى ذات جماعتها، وليس يقدح في يقينها؛ بل يفكك نظام غلافها، وليس يتحامل على آيدلوجيتها؛ بل يريها حدود سورها، وليس ينكر عليها خطابها؛ بل يكشف لها ازدواجية منطوقها.

هذا الأفق هو ما حاولت فراشتي إشباعه في كتابتي للتجربة..

هامش

[1] انتهيت من كتابة تجربتي في نوفمبر 2005 ، لم تكن بغرض للنشر، كنت أحاول أن أجيب بها على سؤال واحد يتردد في داخلي باستمرا: كيف تشكلت؟. تطلب مني نشرها مجهوداً يشبه إعادة الكتابة من جديد، لتصبح مادة يستطيع من هم خارج التجربة، أن يتصلوا معها بقدر أكبر من الفهم.

الهروب الأول

جماعة " الأمر" وتشكُّلات الذات

لماذا أكتب؟

1. لأني، وحتى الرابع من فبراير 2004، كنت واحدة من أفراد هذه الجماعة، إلى أن وضعت في هذا التاريخ، نقطة، حسمت بها أمر وجودي فصرت خارج هذا التشكيل، بعد أن مررت بحيرة وقلق معرفيين طويلين، امتدا معي لأكثر من عامين، سبقا إعلان انفصالي الرسمي عن الجماعة.
2. لأني قضيت 16 عاماً من عمري، داخل الرحم الرمزي لهذه الجماعة، كنت خلالها، فيما عدا العامين الأخيرين، على انسجام تام مع أفراد هذه الجماعة، وأفكارها، ومعتقداتها، وكنت أعيش اكتفاءً بها عن كل ما سواها، وكان انتمائي لها ووجودي فيها، يمنحني إشباعاً عاطفياً ونفسياً واجتماعياً وفكرياً من نوع خاص –وهو أمر يقتضيه تشكيل الفرد الذي تتماهي ذاته في الجماعة، كما سآتي عليه لاحقاً– مما جعل حضورها عندي، يفوق حضور عائلتي التي أنتسب لها بالدم والأصل.
3. لأن خروجي، لا يمثل انشقاقاً معادياً لشخوص معينة في الجماعة، ولا ينظر إليها باعتبارها انحرافاً عن الحقيقة، ولا باعتبارها ابتداعاً دينياً ضالاً. خروجي ليس يشهر عداءً ولا يشن حرباً، ولا يحمل بين طياته سوءاً يستبطن أياً من أفراد هذه الجماعة. إنما نتج خروجي عن تحول معرفي، حوّل رؤيتي للحقيقة، وجعلني أراها متعددة بعدد أنفاس الإنسان وخطراته، متسعة بقدر اتساع الكون غير المنتهي. هذا التحول أبدل تصوري للانسان والعالم، كما أبدل علاقتي بالجماعة (بالمفهوم السوسيولوجي للجماعة)، مما يجعلني أنظر إليها الآن، باعتبارها تشكيلاً اجتماعياً دينياً خاصاً يستحق الدراسة والتأمل والقراءة.
4. لأنني أدّعي، أنني حين أتعرض لمفهوم الجماعة وتعريفها، وأتناول أثر الجماعات في تشكيل الذات الفردية والجماعية لأفرادها، وأثرها في تغليف سلوكهم الاجتماعي وتنميطه، وحين أحاول فهم بلورتها للنظام المعرفي لدى أفرادها، فإنني أنطلق، في ضربي بجناح فراشتي – ليس بما يحمله الضرب من عنف رمزي، بل بما يحمله جناح فراشة من حركة بسيطة– من منظور معرفي، يحدد زاويتي التي أدخل منها لدراستها "كجماعة"، مستعينة في ذلك ببعض الدراسات الاجتماعية والانثربولوجية التي حاولت الدخول إلى الجماعات

وفهم تشكيلاتها ومتخيلاتها الواعية واللاواعية ككتاب "الجماعة واللاوعي" لمؤلفه ديديه أنزيو، وكتاب "الجغرافيا الثقافية" لمايك كرانغ، وكتاب "الآيدلوجيا" لمحمد سبيلا.

5. أحاول من خلال سردي لهذه التجربة أن أفهم هذه التجربة بما عايشتها بكلي، وبما تعايشت في داخلي. أحاول قراءة نفسي عبر لا وعي هذه الجماعة، وقراءة الجماعة عبر لا وعي نفسي، وأنطلق إلى هذين اللاوعيين، من خلال وعيي الحالي، الذي أفهم به التشكيل الجماعي بأنه "غلاف يشكل الأفراد ويضبطهم معاً".

ما الجماعة؟

يقدِّم ديديه أنزيو في كتابه "الجماعة واللاوعي" تعريفاً يقارب مفهوم الجماعة باعتبارها، "غلافاً يضبط الأفراد معاً"[1]. فأي جمع من الناس ليس له غلاف اجتماعي خاص به، لا يعدو أن يكون سوى مجرد تجمّع بشري، لا جماعة.

الغلاف يعمل على احتواء أفراد الجماعة معاً، وحمايتهم من التبعثر أو التهلهل أو الضياع.

يتمثل هذا الغلاف في مبدأ مشترك يجتمع عليه أمر الجماعة، ليكون عقالها الذي تعقل به نفسها وأمرها، وتوجه به علاقاتها التي تديرها في الداخل أو الخارج، فالعقال هو ما يطوّق رأس الإنسان، كما الجماعة يطوِّقها الغلاف.

يعبِّر هذا المبدأ عن حلم، أو عن رغبة مكبوتة عند الأفراد الذين يخلقون هذه الجماعات، "الجماعة شأنها شأن الحلم، هي تحقّق خيالي لرغبة مكبوتة"[2]، هذه الرغبة المكبوتة هي رغبة متعذرة أو مستحيلة التحقّق، كما يرى أنزيو، فيكون خلق الجماعة هو نوع من المخيال الجماعي نحو تحقيق حلم صعب أو مستحيل. من هذه الرغبة يتغذى خيال الأفراد الذين ينجذبون نحو تحقيق الحلم بدخولهم الغلاف، فيتشاركون أحلامهم، ويحيلون واقعهم إلى صورة من صور خيالهم، فهم "يوجهون جماعتهم الحقيقية بجماعة خيالية"[3].

بفعل تنظيم الجماعة لشبكة علاقاتها الداخلية، وبفعل ما تشبعه من خيال أفرادها نحو تحقيق حلمهم، تصير الجماعة المخلوقة كل شيء بالنسبة لأفرادها، وتعلو فوق كل شيء، فوق الفرد، فوق الذات، وفوق كل ما لا ينتمي للحلم. تصير الجماعة قسماً مقدساً يستوجب الطاعة والولاء المطلقين للحلم جَهْد الأَيْمان. " نخلق الجماعة ولا نقسم إلا بها" [4]. قسماً لا يجوز الميل أو الانحراف عنه. تصير الجماعة وحدها المعجزة التي يتحقق بها المستحيل.

---

1 ديديه أنزيو، **الجماعة واللاوعي**، ص5
2 ديديه أنزيو،**م.ن**.، ص14
3 ديديه أنزيو،**م.س.**، ص66
4 ديديه أنزيو،**م.س.**، ص60

كلمة الجماعة (groupe)، هي من الكلمات الحديثة في اللغات الأوروبية، وهو لفظ من مصطلحات الفنون الجميلة، أدخل إلى فرنسا عن طريق إيطاليا القرن السابع عشر وكان يستخدم للإشارة إلى مجموعة المواضيع المرسومة أو المنحوتة. ولأن الفن إبداعاً بشرياً يقوم على التشكيل والرسم والنحت والتصوير والتمثيل بوحي من الخيال الخلاّق، فإن مفردة الجماعة المأخوذة عنه، والتي جرى تعريفها في القرن الثامن عشر بأنها اجتماع بشري، هي ذلك الاجتماع البشري الذي يشكّله الخيال لتحقيق رغبة مكبوتة أو صعبة التحقّق، إذ لا قيمة للاجتماع على أمر متاح يمكن لأفراد متفرقين تحقيقه بلا عناء.

مخيال "الأمر"

ما هو المخيال المشترك الذي اجتمعت عليه جماعة " الأمر" ؟

في حوار لها، تقول "رابحة الزيرة" معرِّفة بجماعتها " نحن جماعة مسلمة، ملتزمة بكل أصول الدين وفروعه، تؤمن بالأئمة الاثنا عشر، وتؤمن بالإمام القائم بأنه حيّ، موجود ومتوفّر وليس يستحيل رؤيته أو التشرف بمكالمته، وهذا هو أقسى ما في فكرتنا من تديّن أو بدعة، والاستلهام منه أو الاسترشاد لمن أراد بإخلاص كائنا من كان، رجلٌ يدعوه البعض بالمخلّص، أو الموعود، أو المنتظر أو المصلح الأعظم أو مهدي الأمم، هذه هي عقيدتي في أحسن صورها وأبسطها"[5].

يحاول هذا التعريف الموجز، إخفاء الرغبة الصعبة التي تحملها الجماعة في متخيلها ومواراتها، ويكتفي بالإشارة إلى استحضار اعتقاد عام يكاد لا يختلف عليه السواد الأعظم من المؤمنين بالمهدي، وهو أمر لا يستدعي اختلافاً وحرباً كالتي شهدتها الساحة الدينية الشيعية حول هذه الجماعة. فما هي (الرغبة الخاصة) والمغايرة التي تتحرك من أجلها هذه الجماعة؟

هناك (رغبة ذات حِمْل) تعبّر عنها الجماعة في مبادئها التي أعلنتها من خلال جمعية التجديد (المؤسسة المدنية للجماعة)، عبر مشروع "عندما نطقت السراة"، حين "نطقت" بما تحمله من أمانة كبيرة لا حياد لها عنها: "لا غنىً لنا، ونحن في تحقيق حلمنا ماضون، عمّا يحفظ استقامة المسيرة، ويخفّف من عبء حمل الأمانة الكبيرة في طينا للدرب اللاّحب الطويل (اللاحب هو الطريق الواسع المنقاد الذي لا ينقطع)، بل بجعلها رحلةً ممتعةً تجمع أعضاءها على آصرةِ الأخوةِ وعلى أساسٍ من حسن الظن والاحترام والإنصاف. فنحن نؤمن بأنّ المعجزات الكبار يقوم بها أناس متّحدُّون، على قاعدةٍ من القيم والمبادئ الثابتة التي لا حياد عنها"[6].

---

5 **حوار مع رابحة الزيرة**، علي أحمد الديري.
6 جمعية التجديد، **لمحة تعريفية**: مبادئنا.

تعتقد هذه الجماعة أنها تحمل رغبة صعبة، وحلماً أقرب للمعجزات الكبار، وهو حلم دربه طويل (لاحب)، ورغبة متخيلة أكبر من أن يتم اختصارها في كونها "جماعة مسلمة ملتزمة" فحسب، حسب تعريف رابحة الزيرة.

فأعدُّوا للخروج

يقول المولى(المولى هو الاسم الذي يعرف به الامام المهدي داخل الجماعة): "فأعدوا للخروج إعدادكم للمحافل"[7].

تحمل جماعة " الأمر" متخيلها الخاص، الذي يرى أن خلاص البشرية مما آلت إليه من ظلم وظلام، سيكون على يد هذه الأمة بالذات، التي هي "منبع أديان السماء، ومهابط الوحي، وحاملةِ لواء العالم، وناشرةِ رسالة رحمة العالمين"[8]. ولأن هذه الأمة صارت اليوم "مرتعاً ومنبعاً للداء بعد أنْ كانت طبيباً دوّاراً بالدواء"[9]، فإن خلاصها الذي يتبعه خلاص العالم، سيكون على يد رجل من رجالات هذه الأمة، من نسل نبيها، هو الإمام المهديّ، الذي سيخرج لينقذ البشرية جمعاء (حتى هنا، لا تقدم هذه الجماعة شيئاً جديداً أو مخالفاً للرغبة الشيعية العامة).

لكن يسبق ظهور الإمام المنقد والمخلِّص، حركة خفية، تعمل على إعداد قيادات وكوادر بشريّة، تمهِّد الأرض لقبول خروجه، وتمكِّن العالم لاستقبال دعوته.

هذا التمكين تشرع به جماعات قليلة العدد، تنتشر في أصقاع مختلفة من الأرض، يجتبيهم الإمام ويعدّهم ليكونوا خيرة أنصاره حين خروجه، فيما هم يعدون الأمة للتهيؤ لنصرته حين الخروج.

من هنا يقوم تأسيس جماعة "الأمر" على أنها تشكيل، صدر بأمر خاص من الإمام المهدي، تمهيداً لخروجه، وإعداداً لنصرته (كما سنرى بتوسع فيما بعد). ومن هنا تُعرّف الجماعة نفسها كونها الجماعة الخاصة التي تستجيب لأمر المولى، ولذا تطلق على نفسها إسم "جماعة الأمر"، وترفض إسم "جماعة السفارة" الذي أطلقه عليها المخالفون وبه اشتهرت وعرفت في المجتمع، وترى أن هذه التسمية لاتنطبق عليها من حيث كون (السفارة) تعني النيابة الشاملة عن الامام الغائب، وهي نيابة علنية وظاهرة انتفت حاجة الامام إليها في هذا العصر الذي هو عصر الظهور.

في هذه الجماعة سيقوم الإمام برعاية الأفراد وتربيتهم وتوجيههم وتسديدهم عن طريق مكاشفات خاصة (كالرؤى والأحلام أو التسديدات الغيبية)، يتلقاها الرمز الأكبر لهذه الجماعة. هذا الرمز هو باب الجماعة الذي يصلها بالامام وبخاصة أصحابه.

---

7 جزء من نص المولى للأمر بتشكيل الجماعة الممهدة.

8 جمعية التجديد، **لمحة تعريفية**، رؤيتنا.

9 جمعية التجديد، **لمحة تعريفية**، رؤيتنا.

من هنا يشتعل فتيل الاختلاف والخلاف بينها وبين المجتمع الذي سيرفض هذا التشكيل وسيحارب هذا التخصيص.

الهروب الثاني
قهر الذات بداية تخلُّص وعلامة خلاص

في الهروب الأول، تتأسس فكرة جماعة "الأمر" على الاستجابة لأمر صادر عن الإمام المهدي، بتشكيلٍ يمهد لخروجه ويعد لنصرته "فأعدوا للخروج إعدادكم للمحافل". هذا الاعداد تشرع به جماعات قليلة العدد، تنتشر في أصقاع مختلفة من الأرض، يجتبيهم الإمام ويعدّهم ليكونوا خيرة أنصاره حين خروجه، فيما هم يعدون الأمة للتهيؤ للخروج الذي سيخلص البشرية مما آلت إليه من ظلم وظلام.

في هذا الهروب أتناول الجماعة من خلال ثلاث مفاهيم أساسية أحاول أن أفهم بها (جماعة الأمر). المفاهيم الثلاثة هي رحم مريم، والرغبة المستحيلة، والحلم.

رحم مريم

ترمز مريم إلى الحمل الذي باركه الرب لينجب ولادة مخلّصة. ولادة مريم بالمسيح ستخلص العالم من الشر والظلم وستنشر العدل والخير. الجماعة تحمل هذه الرغبة وتحلم بتحقيقها، لذا ترى (جماعة الأمر) إلى نفسها، بأنها (رحم) يشبه رحم مريم الذي سينجب المخلّص الذي سينشر العدل والخير، لكنها هنا ستنجب أنصاراً مخلّصين، هم نحن المنخرطين في هذا الأمر، لذا أسميته برحم الخلاص.

الرغبة المستحيلة

ترغب الجماعة في تغيير وجه العالم الذي صار ظالماً يحكمه الزيف والاستعمار والكفر، بعالم آخر مثالي يحكمه الأنصار المخلصين الذين سينجبهم رحمها المخلّص يقودهم الامام المهدي، ترغب الجماعة في أن تكون هي رحم خلاص العالم. تتعرض هذه الرغبة المثالية البعيدة، للقمع أو الكبت أو السخرية أو الاستهزاء أو المحاربة من قبل المخالفين، لذا أسميتها بالرغبة الصعبة أو المستحيلة.

الحلم

يتمكن الحلم من تغيير وجه الواقع، واستبداله بوجه آخر مثالي أو مرغوب فيه. الحلم هو تحقق خيالي لرغبة جامحة تسيطر على وعي الجماعة. الجماعة تعمل على تحقيق هذه الرغبة في عالمها الداخلي، تحمل الجماعة في مخيلتها أنها العالم المثالي الممهِّد لخلاص العالم، وأنها الصورة الفضلى للعالم، لذا تعيش الجماعة واقعها الخاص المفصول عن الواقع الخارجي، فترى الخارج صورة زائفة يجب أن تستبدل بحقيقة تشبه واقعها وتقترب من عالمها.

رحم الخلاص

مخيال الجماعة إذن، ينبثق من تمثّل رغبة صعبة، وحلم بخلاص مقدّس، ينتشلها والعالم من واقع ظالم ظلاميّ، ويستبدله بواقع تخليصيّ يحقّق للعالم عدلاً موعوداً.

تقول إحدى الإمثولات الغربية " ذات يوم، وعندما وقفت ماريا بجوار النبع لكي تملأ جرة الماء، ظهر لها ملاك الرب وقال: مباركة أنت يا ماريا لأنك هيأت في رحمك مقاماً للرب، أنظري سيأتي نور من السماء ويسكن فيك، ومن خلالك سيضيء العالم قاطبة"[10].

لعلّ رحم الخلاص المبارك الذي تنشده الثقافات المختلفة عبر أمثلتها الدينية والمثيولوجية، يحبل دوماً ببطل محارب قوي محبّ مخلِّص، تلده الأمّة، ليعيد ولادتها من جديد، وينتشلها من ظلامها الدامس الذي مضى فيها طويلاً.

ولعلّ تعدّد وجوه البطل التي تستحضرها المثيولوجيات المختلفة: محارباً وقدّيساً ومحبّاً ومخلِّصاً كما يشير إليه (جوزيف كامبل) في كتاب " البطل بألف وجه"، تعبِّر عن رغبة مشتركة تحلم بالخلاص، لكن تبقى كل ثقافة تولِّد مخلِّصها من رحمها الخاص، وتبقى مسألة الرحم المهيأ، والنور الذي يسكن هذا الرحم، والولادة المباركة التي تترقّبها الأمّة، أمثولات تتشابه داخل الثقافات المختلفة، بقدر من الاختلاف، يتيح لكل منها تشكيل جماعتها الرحميّة، التي تحمل مخيالها الخاص لصورة خلاصها ومخلّصها. يحمل رحم الخلاص نواة أيدلوجية كما في جماعة الأمر.

رحم مريم

عبر أطروحة الخلاص المثاليّ للعالم، دخلتُ رحم " الأمر" المقدّس وداخلني الحلم.

أن أكون شريكة في خلاص مقدّس يضيء العالم كافّة.

صار "الأمر" هو أمثولة رحمنا الخاص التي تُلقى إلينا، وتهيئ داخلنا لمقام مخلِّصنا. كنا نأوي إلى مريم العذراء، باعتبارها رحماً نبوياً، نربض حيث مكان تعبُّدها طائعين ماثلين، نتدبّر آيات مخاضها من القرآن، نتلوها، ونعاود تدبّرها في جلساتنا الخاصة، نقارب رحمها برحمنا المخلِّص، نترقّب مولودها المبارك كما نترقّب ولادتنا المخلِّصة، نتمثَّل مخاضها حتى كأننا نستظل معها تحت جذع النخلة، نهزّ بجذع نخلها كلما هزّت، ونرقب معها أن يسّاقط علينا رطباً مخلِّصاً جنياً.

---

10 إحدى الامثولات، انظر: جوزيف كامبل، البطل بألف وجه، ص313

هكذا صارت الجماعة عالمي الذي ينتج علمي ومعرفتي ويقيني وحركتي وسكوني وقيامي وقعودي،" فما أحلى أن تأخذ يقينك من إمام، وعلمك من إمام، وسكونك وحركتك وقيامك وقعدتك وحبك وكراهيتك ووصالك وقطيعتك وأجرك وحاجتك وغير ذلك من شؤون سلوكك أو عبادتك، تأخذها وتنهلها صافية من مائها الفياض الزلال، من يد إمام الكون"[11].

صرت أرى بأنني ابنة هذه الجماعة، وأنني لا أجيد الحياة إلا في رحم مائها الصافي الزلال الذي ينهل من فيض الامام، أما خارج عن هذا الرحم، فلست أنتسب له إلا بمقدار ما لا يمس حياتي ووجودي داخل هذا الرحم، "نحن لم نولد من أب، ولكن من جماعتنا الخاصة، ونحن لا نأخذ أصلنا من كائن أو حقيقة خارجيين. إننا جماعة رحم تولد نفسها" [12].

بهذا صار رحم جماعتنا هو الرحم العذري الذي يولِّد نفسه بنفسه، ويعيد إنتاج نفسه مع كل ولادة، يعيد صياغة دليل وجوده المرة بعد المرة بولادات تشبه بعضها البعض، صرنا نرى في رحمنا أنه مركز الولادات جميعا، فهو الرَّحم المُخلِّص، المهيأ لمقام المُخلِّص. هو الرحم الذي يلد خلاصاً للعالم، فما حاجتنا إلى غيره من الأرحام؟ وأي ولادة تشبه ولادات رحمنا الصغيرة التي تمهد لولادة مقدَّسة مباركة؟ كل ما يولد خارج رحمنا لا يعوَّل عليه. رحمنا اكتفاء، يأخذ منه كل رحم ولا يأخذ هو من غير مخلِّصه.

الحلم فوق الجميع

ما هو الحلم؟ كيف يبني الحلم الجماعة؟ كيف تكون الجماعة مشروع حلم؟ كيف يتحول الحلم إلى نظام يفترض الطاعة ويفرض السلطة؟ كيف يتحول الحلم إلى آيدلوجيا تحكم الأفراد وتضبطهم معاً؟

يجري النظر إلى الحلم بأنه عملية تخيلية تتخطى حدود الواقع إلى أفق أكثر رحابة. يقول انسي الحاج: "الحلم هو العقل والروح والخيال، انه الفردوس الممكن، الحلم أولاً، الحلم فوق الجميع، الحلم هو محرض الواقع وروحه وعقله وعصبه"[13].

الحلم تحريض من أجل تغيير الواقع غير المرغوب فيه، واستبداله بواقع آخر يتصوَّره الخيال ويرغب به بشدّة.

تحلم (جماعة الأمر) باستبدال صورة العالم الذي تسيطر عليه قوى عظمى متجبّرة وظالمة، بصورة أخرى ينضوي فيها العالم تحت راية واحدة تقضي على قوى الاستكبار والهيمنة وتنشر العدالة والخير والسلام، باسم الاسلام.

---

11 مقطع من أحد النصوص الشارحة التي يتم فيها توصيل المفاهيم الخاصة بالجماعة وترسيخ أفكارها ومبادئها ونظمها.

12 هكذا ترى عموم الجماعات إلى نفسها، حين تبدأ تماهيها الداخلي الذي يشعرها بالاكتفاء المطلق بجماعتها، أنظر : ديديه أنزيو، الجماعة واللاوعي، ص87

13 محمد عبد الرحمن يونس، **الأسطورة في الشعر والفكر**

تغيير الواقع هنا لا يمكن أن يتم دون جماعة تتبنى هذا الحلم. جماعة الحلم تنشئ عالمها الخاص الذي تستطيع فيه التحدث عن حلمها الصعب دون خوف أو تكذيب أو استهزاء. تستطيع الجماعة من خلال عالمها الخاص وأفرادها الخاصين، أن تبلور رؤيتها (الحلم في اللغة هو الرؤيا) لعالم جديد يشبه حلمها. من هنا تبدأ الجماعة في صياغة نظريتها ونظرتها التي هي روح جماعتها وعقلها وخيالها وفردوسها وممكنها وعصبها.

هذا التشكيل للجماعة، ساهم في تحويل هذه الرؤية الحالمة إلى ما يشبه الواقع في داخلي كفرد داخل الجماعة، لذا كنت أنظر إلى الجماعة أنها مدينتي الفاضلة الصغيرة التي تمهد لمدينة فاضلة كبيرة، بهذا صارت الجماعة عندي، قداسة تشبه قداسة الحلم.

وعيي الديني الذي نشأ على أن يرى أن خلاص العالم سيأتي على يد الامام المهدي، ساهم في تقديسي لأدلوجة الجماعة التي تحاكي هذا الوعي وتتمثله. الجماعة وفق هذا الوعي تسير باتجاه حلم مقدّس منصوص عليه ومؤكد عليه في الروايات والأحاديث الدينية، وهو حلم لا محالة آت قرب ذلك الزمان أو بعد.

داخل كل رؤية ثمة ما لا يُرى، لكنني لم أكن أرى أن رؤيتي (حلم الجماعة) كانت ترينا الخيال وتخفي عنّا الواقع، كانت تحضر الخيال إلى واقعنا، وتغيّبنا عن الواقع.

قهر الرغبة

يعرف فرويد الحلم بأنه تحقّق جامح لرغبة.

بقدر ما تكون الرغبة مكبوتة أو صعبة أو مستحيلة، يكون الحلم أكثر جموحاً نحوها.

الرغبة المكبوتة أو الصعبة أو المستحيلة تسيطر على خيال الأفراد، وتجذبهم إليها على نحو آسر، وتوجه سلوكهم واهتماماتهم وردود أفعالهم باتجاهها.

الإنسان منجذب إلى الرغبة الجامحة، عاشق للحلم الذي يجعل من رغبته الصعبة حقيقة واقعه. والحلم يهيمن على الإنسان المنجذب إليه، آسراً رغباته، قاهراً للواقع غير المنسجم مع الحلم.

بهذه الرغبة، يأسر الحلم الانسان ويقهره. الإنسان المقهور كما يراه باولو فيراي، يصير مجرد "شيء" في يد قاهره (الحلم). هذا "الشيء" لا يعود يشعر بنفسه خارج سلطة قاهره، بل يجد نفسه داخل هذه السلطة أكثر ضبطاً من خارجها، فهو لا يمتلك جرأة التحرك أو التفسير أو التأويل أو الفهم خارج سلطة قاهره الرمزية.

القاهر هنا قد يكون شيئاً رمزياً كالحلم مثلاً، أو الرغبة، أو الجماعة، وقد يكون الرمز الأعلى الذي يملك تحريك الحلم والرغبة في نفوس أفراد الجماعة ومخيالها.

يتجسد قمة اكتمال الفرد في داخل الجماعة بأن يأخذ كل أموره من داخل الجماعة التي هي تنطق باسم الحلم، الذي هو ينطق باسم الإمام، الذي هو ينطق باسم إله الكون،"فما أحلى أن تأخذ يقينك من إمام، وعلمك من إمام، وسكونك وحركتك وقيامك وقعدتك وحبك وكراهيتك ووصالك وقطيعتك وأجرك وحاجتك وغير ذلك من شؤون سلوكك أو عبادتك، تأخذها وتنهلها صافية من مائها الفياض الزلال، من يد إمام الكون"[14].

من علامات القهر التي تجسدت في شخصيتي، أنني كنت أرى نفسي قاصرة أو مذنبة أو مخطئة، حين أجادل أو أبدي رأياً يخالف أمر أو رأي الأفراد الذين يمثّلون الحلم بالنسبة لي، "إمامنا القائم أعلم من سائر الناس في زماننا، والرابطة [15] أعلم بالحركة من سائر الأفراد، فإذا تلقت الرابطة توجيهات الامام وتلقت المعلومات المرفوعة اليها من قبل الأفراد ثم أصدرت أمراً، أليست هي في هذه الحالة أعلم بما أمرت من غيرها؟ ولو أن مخلصاً نوى راض وتأمل هذا التأمل لكفاه، وحجزه عن إبداء رأيه"[16].

ممثلو الحلم كما كنت أراهم هم الأكثر فهماً والأكثر وعياً والأكثر دراية بكل أموري وصالحي وصالح العمل والحلم، وأي اعتراض من قبلي دليل تباطؤ وتلكؤ وبداية خسران مبين، "وجود الاعتراض في الحركة دليل على تباطؤ سعيها وربما تضاؤله إلى درجة لا شيء (....) ويتمثل إبداء الرأي في إثارة الأسئلة حول الأمر(........) فما لنا بالأسئلة وما هي الغاية من ذلك، هل نريد نهاية كنهاية أولئك الذين خرجوا من أمرنا، لقد بدؤوا أمرهم بسؤال بعد سؤال، واعتراض بعد اعتراض، ثم كان عاقبة أمرهم خسراً"[17]

يعيش المقهورون صراعاً داخلياً "بين أن يكونوا أنفسهم وأن يكونوا قاهريهم"[18]، إلا أنهم لا يستطيعون الانفلات من سلطة قاهريهم، فهم يرون "من نماذج القاهرين تجسيداً لهم"[19]، ولذا يأتي موقف المقهورين وسلوكهم وتفكيرهم منسجماً مع الخصائص العامة للقاهرين ولسماتهم وممارساتهم وآرائهم.

جسد القهر

كيف تجسَّد هذا القهر في حلمي ورغبتي كفرد داخل جماعة؟ وكيف أصبحت الرغبة قهراً لي من حيث كنت أنشد بها خلاصاً من كل أشكال القهر؟

---

14 مقطع من أحد النصوص الشارحة التي يتم فيها توصيل المفاهيم الخاصة بالجماعة وترسيخ أفكارها ومبادئها ونظمها.

15 المقصود ب (الرابطة) هم الزعماء الموجودون في أعلى قمة التنظيم الهرمي للجماعة، وهم الوكلاء الخمسة الذين اختارهم الامام ليبتوا في شؤون الأمر وشؤون أفراده.

16 مقطع من أحد النصوص الشارحة التي يتم فيها توصيل المفاهيم الخاصة بالجماعة وترسيخ أفكارها ومبادئها ونظمها.

17 المصدر السابق.

18 باولو فراي، **تعليم المقهورين**، http:www.josor.net

19 باولو فراي، **تعليم المقهورين**، http:www.josor.net

الاكتفاء بالحلم، والانكفاء في داخل الحلم، وعدم التحرّك إلا من خلال الحلم، ومن أجل الحلم، وبأمر الحلم، ووفق الحلم، وباسم الحلم، والحجز عن إبداء الرأي أو الاعتراض، كلها علامات حصر، والحصر قهر لا خلاص. الخلاص حرية، والحرية انطلاق وعوز لا انكفاء واكتفاء.

القهر الرمزي تمثل عندي في الانقياد المطلق والتطابق المطلق والتماثل المطلق والتسليم المطلق، لكن الطوعي، لرغبات الحلم، لا لرغباتي كفرد. "فليس في هذا الأمر إلا الطاعة العمياء، وكلما كانت طاعتنا عمياء كان ذلك دليلاً على سلامة طريق الأوامر من الشوائب النفسية المعرقلة"[20]. هكذا بدأ الحلم في تحويل مفهومي للخلاص، وحوّل نظرتي للقهر، فأسبغ على القهر من علامات التقديس، ما جعله عندي غاية من غايات الحلم، بل جعله رديفاً للخلاص. فقهري لذاتي، وقهري لرأيي، وقهري لأفكاري المخالفة، وقهري لشكوكي، وقهري لتساؤلاتي، وقهري لخصوصيتي، وقهري لأناي، أصبحت كلها (قاهرات) ذات قيمة عليا دليلاً على سلامة طريقي من الشوائب النفسية المعرقلة لبلوغ صافي الحلم.

بين يدي الحلم

كل ذلك القهر الطوعي أو المحبب تجسد في تصرفاتي وممارساتي كواحدة من مجموعة من الأفراد المنقادين إلى الحلم، تجسد في التخلي عن العلاقات الاجتماعية من أجل الحلم، في الاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل الحلم، في قهر الأسئلة بين يدي الحلم، في رفع تفاصيل دقائق الخصوصيات للحلم، في عدم الإقدام على أية خطوة دون استشارة الحلم، في استنفار كل الطاقات في دعم وتوطيد وترسيخ الحلم.

بهذا مارسنا القهر طوعاً وباختيارنا، ورأينا أن الحلم لا يتحقق إلا بقهر، وبهذا صار الخلاص بالنسبة لنا، منوطاً بما نقهر من أنفسنا، لنبقى مخلصين للحلم المقدس، صار خلاصنا، هو إخلاصنا للحلم.

الهروب الثالث

فلا تعلوا عليّ واتوني طائعين..

---

[20] مقطع من أحد النصوص الشارحة التي يتم فيها توصيل المفاهيم الخاصة بالجماعة وترسيخ أفكارها ومبادئها ونظمها.

قهر النقطة

"قيل ل" نقطة": أنت مع النظام لست نقطة فحسب، بل تصيرين شيئاً مهماً ذا قيمة يضاعف العمل بك أضعافاً مضاعفة، بشرط أن تلتزمي بالموقع الذي تجعلين فيه، فأطاعت النقطة، وجعلت خلف مجموعة (النقاط) من أخواتها فتضاعفت قيمة العمل من 100 إلى 1000، ولكن مع مرور الأيام، سئمت النقطة وقالت: لماذا لا أتقدم على الأوامر؟ ولماذا لا أتقدم على الجميع بمن فيهم هذا ال(واحد −1−)، ولماذا أظل تابعة في كل شيء؟ ثم أنا لا أشعر بقيمتي هذه التي يقولون عنها مادمت في الخلف. بل قيمتي في أن أتقدّم وأن أخالف بعض الشيء فأنا لي رأي حتماً، وإلا فأين التقدير والمبادرة و.....، وفعلاً بادرت النقطة وخرجت من صفها حتى وقفت أمام الواحد، وافتخرت هنالك في نفسها: ها أنا أقف أمام الواحد وصارت هكذا (0100)، وظنت أن العمل تقدم وتضاعف أكثر وأكثر، وأن الرقم لا بد زاد!"

أحد النصوص التي كانت تلقى للفرد في بدايات دخوله الأمر..

في الهروب السابق، لم أكن أدرك أن نفسي مملوكة بيد الحلم، لم أكن أسأل إلا في حدود ما يُسمح لي، ولم أكن أقيم علاقاتي الخارجية إلا في حدود ما يُرسم لي من خرائط.

عضّد من قوّة هذا "الحلم" الرؤى والأحلام والنصوص التي كانت تصلنا باستمرار. كانت تلك تُكبر الحلم في نفوسنا وتهيّبه وتعطيه قدسيته الخاصة، وما فتئت تفعل في هذه الحلقة..

في هذا الهروب أحاول أن أفهم كيف تحول حلم الجماعة الذي ينشد تخليص العالم من كافة أشكال الظلم والتبعية والانقياد، إلى شكل منقاد كلّه للحلم، مسيّر كلّه لإرادة الحلم؟ سأحاول أن أفهم ذلك عبر ما أسميه "زعامة الأمر".

الأمر

تتأسس فكرة الجماعة على الاستجابة ل"أمر" صادر من الامام المهدي، بتشكيلٍ مُختار يعدُّ لخروجه وظهوره. يختار الامام قياديه الخاصيين، ينصّبهم وكلاءً في قمة رأس التنظيم الهرمي. الوكلاء يختارون من يثقون في إيمانه وعقله ليقلّدوه سرّ الامام، ويعرضوا عليه الدخول في الأمر والتشرّف بالإنضمام إلى ركب خلّص أنصار الامام وخاصته.

زعامة الأمر

يعرف الزعيم إرادة الجماعة ويدرك عمق رغبتها، الزعيم يجسّد رغبة الجماعة، ويستطيع توجيه الجماعة لتحقيق حلمها على نحو لا يستطيعه غيره. الخروج على إرادة الزعيم هو خروج على إرادة الجماعة وحلمها ورغبتها، بهذا يسيطر الزعيم على وعي الجماعة ويوجه إراداتهم.

سيؤسس "الأمر" حلم الجماعة ويحرِّك أفرادها نحوه، سيجسّد "الأمر" رغبة الجماعة الصعبة ويوجهها نحوها. سيتحول "الأمر" بهذا إلى زعامة مطلقة تحكم إرادة الجماعة وحركتها ومشاعرها ورغباتها، من هنا أفهم فعل "الأمر" بوصفه فعلاً زعيمياً..

خلاص أم خلوص؟

لم يعد الخلاص في تجربتي تحرّراً، إلا بمقدار ما يخرجني من صميم يقين مجتمع ليدخلني في صميم يقين جماعة، وبمقدار ما يخلصني من الانقياد والتبعية المطلقة لأحلام المجتمع ليوقعني في الانقياد والتبعية المطلقة لحلم الجماعة.

صار الخلاص يعني لي تمثّل الحلم، وحصر الأمر كلّه في الحلم، وذلك لما يحرّكه فينا من مشاعر مشتركة وإرادات ورغبات وتحركات وأفكار ومفاهيم.

كنت أشعر بخلاصي يزداد كلما تخلصت من كل ما يعلق بي من خارج الحلم، كلما صرت حلماً خالصاً مجسّداً في نقطة. صرت نقطة لا تداخلني غير رؤى الحلم. في عز هذا الخلوص فقط، كنت أرى قمة تحرّري.

يقول سارتر: "إنه لمن المفارقة الصارخة أن يشبه وضع الرياضي، وذهنه، وضع رجل منخرط في ممر مفرط في الضيق، حيث كل خطوة من خطواته وحتى وضعيّة جسمه تكونان مشروطتين بطبيعة الأرض، وبضرورة المسير، ويكون مع ذلك، مقتنعاً بيقين لا يتزعزع، بأنه يقوم بكل فعل من أفعاله بحرية تامة"[21].

---

[21] سعاد حرب، **الأنا والآخر والجماعة**، ص17

الحرية التامة كما كنت أفهمها، هي أن أمارس حركتي داخل (ممر الجماعة) دون أن أنزعج من ضيق الممر، بل دون أن أرى أي ضيق في الممر، بل أن أرى الممر على العكس من ذلك، مكاناً رحباً واسعاً يتيح لي حركة شبيهة بحركة الرياضي في الفضاء المفتوح. فكيف كان ذلك؟ كنت مقتنعة وبيقين مطلق أنني وباعتباري نقطة داخل نظام (انظر نص النقطة داخل الاطار المرفق مع الحلقة)، فإن قيمتي تكبر بقدر ما تكون حركة خطواتي ملتزمة بالموقع الذي يختاره لي النظام، وأنني مع النظام لست أصير نقطة فحسب، بل أصير شيئاً مهماً يضاعف من قيمة العمل كما قيمتي.

ذهنية النقطة

كنت أرى أن ذهني يصير مفتوحاً على فضاء العقل، حين يلحق بعقل الجماعة فيصير رهنُ رغبتها وحلمها وأمرها " هناك نقطة ما عاقلة، نظرت إلى نفسها فرأتها بلا قيمة ولا نفع، فقالت: أنا الآن حرة نفسي ومستقلة و..و..و.. ولكن بلا قيمة حتماً، فلم لا أنضم لأحد ولو شخص (واحد) وقد أفقد بعض حريتي واستقلالي وأتنازل عن بعض آرائي وأكون تابعة، ولكن سأحظى على قيمتي بدلاً من هذا الصفر الذي أنا متابعة فيه، فجاءت إلى (واحد) من العقلاء، وانضمت إليه، (0 و 1) فصارا (10)" [22]

كنت أرى أنني حين أتحرك مستقلةٍ عن النظام، فإنني أصبح نقطة آثمة عاصية مغرورة، ما أسهل أن يمسحها المولى ويستبدلها بغيرها بجرة ممحاة، " أعطى المدرس تلميذه ورقة فيها نقاط كثيرة مبعثرة، فهمست نقاط فيما بينها: ماذا عساهم يفعلون بنا؟ قالت واحدة: أظن أن المدرس يريد من تلميذه أن يمد خطاً علينا جميعاً ليخرج منا صورة جسيمات ذات معنى كما يعملون في المسابقات، فصرخت بعض النقاط، كلا هذا مستحيل، نذوب في خط؟ هيهات لا يكون، وتمحى شخصياتنا؟ لا .. لا يكون أبداً، فاعتزلت جانباً.. ومرّر التلميذ خط حتى كوّن الصورة المطلوبة ثم هتف بالمدرّس: يا أستاذ.. هناك بعض النقاط على ما يبدو لم تندرج في الخط، وكأنها رافضة أن تفعل، قال المدرس بهدوئه: لا بأس استعمل لها الممحاة!" [23]

بهذا صرت أتحرك في ممر الجماعة وأنا على يقين من أنني أتحرك بكامل حريتي. هذه المفارقة التي أسماها سارتر بالصارخة، كانت تتبدى لي على (استحياء)، سرعان ما (أتخلَّص) منه باستبعادها ومواربتها. كنت أعلم أني بلا حريّة تشبه حرّية الرياضيّ- بذهنه المفتوح على فضاء العالم، وقدميه الضاربتين على أرض لا حدود لها- لا أستطيع أن أمارس وجودي الذاتيّ ولا

---

[22] مقطع من أحد النصوص الشارحة التي يتم فيها توصيل المفاهيم الخاصة بالجماعة وترسيخ أفكارها ومبادئها ونظمها.
[23] المصدر السابق

أستطيع أن أحقّق خلاصاً يفتح أفقي على العالم. إلا أني كنت أخشى من أن حركة ذهني المفتوحة، قد تخلص بي إلى درب لا يطويه الحلم أو يخشاه، أو تتوه بي في درب لا ينتهي، فأتوه وأضل ولمّا أصل بعد إلى الخلاص.

لذا صرت أركن إلى الممر المألوف، باعتباره مكاناً آمناً للحركة، أمارس فيه خطواتي (الحرّة)، بقدر ما تتّسع لي مساحته الآمنة، وأخشى المساحات المفتوحة، التي قد تأخذني إلى طريق لا ينتهي، أو إلى وضع موغل في اللا أمان.

زعامة "الأمر"

هذه المفارقة (الممر الضيق مقابل الاعتقاد بحرية الحركة)، جعلتنا (أفراد الجماعة) نزاوج، دون وعيّ فرديّ منا، لكن بوعيّ جماعي، بين أحاسيسنا الخاصّة التي تنشد خلاصاً متمثلاً في التحرّر، وبين أمر " الأمر" الذي يقهر أحاسيسنا ومشاعرنا ورغباتنا وأفكارنا الخاصّة، ويضبطها جميعاً في غلاف واحد، فجعلناها تأتلف جميعها في داخلنا، بالشكل الذي لم نعد نشعر معه بأي مفارقة تُحرِج خلاصنا (الخلاص من أن نكون مقهورين) أو تَجرَح إخلاصنا (الإخلاص لأن نكون مقهورين) ، فكيف كان ذلك؟

يقول سارتر: "في الجماعة يضطر الفرد إلى اعتبار حريته حرية ثانوية، وما معنى أن تكون حريته ثانوية؟ معناها أن يكون عبداً لزعيم يمثل هو " ماهية الحرية" ". [(24)]

الزعيم هنا ليس بالضرورة شخصية حقيقية يجري تنصيبها فوق عرش الجماعة، بل قد يكون شيئاً أو رمزاً أو شخصية معنوية تمثّل سلطة عليا يجتمع عليها أمر الجماعة، ويدين لها بالولاء المطلق ويرى فيها معياراً لخلاص العالم، وتجسيداً للحلم المقدس، وغاية في الرغبة المستحيلة.

مهمّة هذا الزعيم هي مهمّة الحلم، وإرادته إرادة كل فرد من أفراد الجماعة، لكنه يتميز عن كل فرد من أفراد الجماعة، بأنه يعرف إرادة الجماعة العميقة ويدرك مصلحتها ووسيلة تحقيقها لخلاصها المنشود، وبهذا المعنى، يكون الزعيم هو " حريّة محضة" كما يرى سارتر، ويكون هو المتحكم في مساحة الممر المؤدّي إلى الخلاص الآمن.

أما حريّة الفرد في داخل الجماعة، فهي الخطوات المتاحة له في حدود هذا الممر الآمن.

بين حريّة الزعيم الأساسية وحريّة الفرد الثانوية، تنشأ ازدواجيّة الذات (المقهورة)، التي تنتِج باسم الخلاص، مفارقات لا خلاص لها منها.

[24] سعاد حرب، **الأنا والآخر والجماعة**، ص25

فما هو زعيم جماعة " الأمر"؟ وكيف تجسّدت سلطة هذا الزعيم فينا؟ وكيف صار هو حريتنا المحضة؟ وكيف جسد ماهية الحرية لدينا؟ وكيف صارت حريتنا ثانوية أمامه؟ وكيف أعلَمَنا برغبتنا العميقة ومصلحتنا ووسيلة تحقيقنا لخلاصنا المنشود؟

لعلني أزعم أن أول وأقوى سلطة (تزعَّمتني) داخل هذه الجماعة، وحكمت ذاتي وقهرتها طوعياً، هي سلطة فعل "الأمر"، فالأمر هو مجرَّد قول كلاميّ، لكنه ينجز فعلاً عند متلقيه، أي ينجز تأثيراً في أفراده "المأمورين" الذين يتوجب عليهم الالتزام به والامتثال لطاعته[25]. الأمر سلطة.

فعل "الأمر"

يكلِّف فعل الأمر فرداً أو مجموعة بالقيام بعمل ما، لذلك فهو قادر على أن يحدث تغييراً في حالة متلقّيه المأمورين، من حيث يفرض عليهم، أن يقوموا بعمل ما، يغيِّر وضعهم الحالي (وضع ما قبل الأمر)، ويستبدله بوضع آخر (وضع ما بعد الأمر)، أي أن فعل الأمر هو فعل تغييري، ينجز في متلقيه أفعالاً تغييريه تتناسب ورؤية (صاحب الأمر).

يتضمن فعل "الأمر" قوة إلزامية توجب على متلقيه الأخذ بها دون تهاون. ولكي يكون هذا الأمر قوياً وملزماً بما يكفي، ينبغي أن يصدر عن قوة أو سلطة عليا، تمثل مرجعية خاصة عند متلقيه. وكلما كان (صاحب الأمر) أقرب إلى سقف هذه المرجعية، كان حضور (أمره) عند متلقيه، أشد تكليفاً وأقوى إلزاماً، وأكثر قدرة على فرض نوع من المحاسبة الرمزية أو العقوبة، في حال عدم تنفيذه أو إهماله أو التقصير والتهاون فيه.

قل..

- "قل لكل آثم حضيض الذنوب إن للذنب عند اختلاج السرِّ الدفين صريراً وأنين موتى سترفعها تسبيح الملائكك، فبعدها لا توبة لعاص، إذا ما وقف على باب من لم ينم، فأنا الباب ومولاك مفتاح له"
- " كل من جرى عنه هو إلى الوراء قد أُخذ، وكل من جرى إليه هو إلى الحياة قد رُفع، السابقون السابقون"
- " وهذا بلاغ من لدنّا من عميق الغيب منذ الأزل في كتاب الله، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، وإنه من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه"

---

25 انظر نظرية أفعال الكلام لجون أوستين. كتاب التداولية اليوم.

- "معاشر شيعتنا إنّه وليكم الحجّة بن الحسن، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وتأتوني طائعين"
- "فلا يحتنكنّكم الشيطان عن أمرنا احتناكاً، وليعضّ الشّاك فينا سبّابة المتندّم، إذا ما خرج صاحبكم وصاح فيكم من أنصاري إلى الله ".

تلك بعض مقاطع من نصّ الرسالة التي كانت تلقى على الفرد الذي يعرض عليه الدخول إلى "الأمر"، وهي رسالة موقعة باسم الامام المهدي. فما هو فعل الأمر الذي تلقته هذه الجماعة؟ وما الذي أنجزه هذا الأمر في الأفراد الذين أصبحوا جماعة "الأمر" فيما بعد؟

الأمر المقدّس

- الأمر: " فأعدّوا للخروج إعدادكم للمحافل".
- الآمر: " إنه وليكم الحجة بن الحسن وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وتأتوني طائعين".
- المأمورون: " معاشر شيعتنا"

خطورة فعل الأمر في جماعة "الأمر" بالذات، هو كون هذا الأمر صادر، كما يقدّمه خطاب الجماعة الخاص ومخيالها، من مصدر يقدّسه وعيها الديني، يتمثّل في الإمام " الحجة بن الحسن"، السقف المشترك لمرجعية أفرادها، كما يتمثل في الفعل الكلاميّ الذي يصدر عن هذا السقف الأعلى: "فأتوني طائعين".

الأمر بإتيان الامام وإطاعته يمثّل حكم يستوجب الطاعة المطلقة في هذا الوعي، فـ(الأمر) هنا ليس أمراً ملزماً فقط، بل هو حُجّة تكليفية على كل من تصله الرسالة من "معاشر شيعتنا".

ويأتي فعل النهي "لا تعلوا عليّ"، ليجعل من عدم الاستجابة لأمر الجماعة/ الإمام، علوّاً واستكباراً على الإمام، وانحرافاً وارتداداً عن الحقّ، وانجرافاً شيطانياً ضالاً وباطلاً: "فلا يحتنكنّكم الشيطان عن أمرنا احتناكاً" .

هكذا يصبح مجرد الشكّ في صدق الرسالة أو في صدق الأمر، احتناك ضال مستكبر مستعل على نصرة المولى، ويستحق الشاك عض سبابة الندم، والاستبدال بغيره، "وليعضّ الشاك فينا سبابة المتندّم إذا ما خرج صاحبكم وصاح فيكم من أنصاري الى الله ".

تلقّي الأمر

متلقي الأمر هنا صار مُفرغاً من أن تكون له الخيرة في أمره، "طاعتك ليست هامشية يمكنك أن تتخير فيها"[26]، فهو إما مطيع لله، باعتبار الإمام الخط الموصل إلى الله، أو مطيع للشيطان ومحتنك به، إما أن يوقن بالأمر واما أن يشكّ بالحجة، إما أن يستجيب للأمر أو يتعالى على القدس، إما أن يجري إلى الأمام أو يعود جرياً إلى الوراء، إما أن يرفع إلى الحياة أو يهوى نحو الموت، إما أن يحبّه الله ويجتبيه، أو يستبدله بغيره ممن يحب الله ويحبه الله، إما كلُّه مع الامام واما كلُّه على الامام، " فلست لمن ليس لي، فمن لم يكن كلّه لنا، كان كلّه علينا" هكذا بلغنا أن المولى قال.

وهكذا أنجز فعل الأمر انصياعاً لا اختياراً، أنجز اختيار رهبة وخوف من الاثم والذنب والعصيان . أن يكون كلّه على الامام.

في الوقت نفسه أنجز فعل الأمر استجابة فورية من قبلنا، استجابتي جاءت مدفوعة بالرغبة في النصرة والسبق والاعداد والمعية والفوز بالحياة الفاضلة. أن أكون كلّي للإمام..

صار فعل الأمر حريّتي المحضة التي توجه إرادتي العميقة، وتحدِّد جهتي ومساري، وحده هذا "الأمر" يعي كيف أحقّق خلاصي المنشود، وكيف أرتفع إلى الحياة، وكيف أحب الله ويحبني الله.

صار الأمر زعامتي الحاكمة التي لا يشوبها الشكّ ولا يطولها السؤال ولا يرقى إليها فهمي القاصر. السؤال تحول إلى أداة تسيئني (أنا السائلة) وتمسّ الإمام (هو المسؤول)، وحرية "الأمر" المحضة تحولت إلى غلاف يحيط حريتي (الثانوية). بهذا صار "الأمر" فعل قهر متمثّل في جسد خلاص.

غلاف المخالطة والمزايلة

هروب 4

في الهروب السابق صار "الأمر" زعامتي الحاكمة التي لا يشوبها الشكّ ولا يطولها السؤال ولا يرقى إليها فهمي القاصر. يجرح السؤال السائل ويخدش الغلاف، وحين امتلكت بعد طول القصور جرأة السؤال، كان السؤال بوابة خروجي كما سأعرض في حلقة قادمة.

في هذا الهروب سأحاول فهم تشكيل أفراد الجماعة وخصائصهم الاجتماعية والسلوكية من خلال التوسع في مفهوم الغلاف.

---

[26] مقطع من أحد النصوص الشارحة التي يتم فيها توصيل المفاهيم الخاصة بالجماعة وترسيخ أفكارها ومبادئها ونظمها.

غلاف الجماعة

تشكّل الجماعة نسقاً خاصاً من القوانين والأعراف والممارسات. لا يمكن لفرد الجماعة أن يخرج بفعله عن أطر قوانين جماعته وأعرافها، ولا يمكن له أن يخل بتراتبيته داخل بنية الجماعة التي تنظم الأدوار بين الفاعلين، ولا يمكن له أن يقيم علاقاته خارج الحدود المقبولة والمسموح بها. لهذا أنطلق في فهمي لهذا البُعد في تشكيل الأفراد من خلال مفهوم الغلاف، ذلك أن التشكيل هو فعل تغليفي بامتياز.

الغلاف تعبير رمزي يشير إلى ما يلم الجماعة ويماسكها ويفصلها عن الخارج. وهو بهذا المعنى أداة عزل وقطع، وقد عملت النصوص والتعليمات وطبيعة التربية التي تلقيناها في "الأمر" على تغليظ سُمك هذا الغلاف حتى صار جداراً أو سوراً يضبطنا ويحددنا ويميزنا عن الآخرين. الغلاف نفسه هو هويتنا الجماعية. وهو المكان الذي نجد فيه راحة البال، ونأمن فيه من المخالطة غير الآمنة.

يقدِّم ديديه أنزيو في كتابه "الجماعة واللاوعي" تعريفاً يقارب مفهوم الجماعة باعتبارها، "غلافاً يضبط الأفراد معاً"، وهو ما يميز الجماعة عن أي تجمع بشري آخر.

الغلاف يعمل على احتواء أفراد الجماعة معاً، وحمايتهم من التبعثر أو التهلهل أو الضياع.

يحرس الغلاف حلم الجماعة من أن يتسرّب خارج نفوس أفرادها، ويحمي "أمرها" من أن ينتهك بكثرة الوافدين والخارجين.

يحدد الغلاف مساحة حركة الأفراد فيصير ممرهم الآمن لبلوغ الخلاص الذي ينشدون. يعمل الغلاف على تعزيز وجود الفرد داخل الجماعة وتحويله كياناً معتزاً بانتمائه ووجوده، ومُهياً لتقبل

قيمها واختياراتها وأهدافها. كل فرد داخل الجماعة يعتقد أنه ذات "حرّة وواعية ومريدة وفعّالة وأساسية في الجماعة"[27]، وأن له دور ووظيفة ومكانة لا غنى للجماعة عنها، يتقمص الفرد الجماعة وينصهر لا شعورياً في ذاتها الجماعيّة، ويرى أنها تمثّله، وأنه يتحرك وفق ذاته المنسجمة بوعيّ مع ذات الجماعة.

تشكّل الجماعة بوصفها غلافاً، نسقاً خاصاً من القوانين التي تعمل على تنظيم العلاقات بين أفراد الجماعة من جهة، وبين الجماعة والمجتمع من جهة أخرى. الغلاف له وجهان، وجه يقابل الداخل، وآخر يقابل الخارج .

الوجه الخارجي للغلاف، كما سآتي عليه بالتفصيل في هروب قادم، يقابل الخارج أو المجتمع، ينظّم علاقته بالجماعة، يعمل هذا الوجه من الغلاف، كمرشِّح نوعي يسمح باستيراد ما يراه ملائماً، ويصدّ ما لا تسمح به أنظمة الجماعة وقوانينها وأعرافها بالمرور.

كأس الحلم

أما الوجه الداخلي للغلاف، وهو ما سأسترسل فيه هنا، فهو يمسّ أفراد الجماعة، يسبغ عليهم من فيض الحلم، يعضّد تلاحمهم وترابطهم، يقوّي أواصر علاقتهم ويعززها، يشعرهم بالاكتفاء بجماعتهم. هذا الاكتفاء يجعل أفراد الجماعة في غنىً تام عن إقامة علاقات اجتماعية مع باقي أفراد المجتمع.

من جهة أخرى يصبح أمر الانكفاء (لا الاكتفاء فقط) في داخل الجماعة حاجة ملحة في ظل وجود مخالفين يتربصون بأفرادها "هناك أيضاً راحة البال من عدم مخالطة المخالفين ومناقشتهم والاحتكاك معهم وتحمل نظراتهم اللاهبة الحاقدة"[28].

يلتزم أفراد الجماعة بالعيش جنباً إلى جنب مع عدد صغير من الأشخاص، يشاطرونهم قيمة الوجود وهدفه وغايته وحلمه. يرى وكلاء الجماعة [29] أن الانكفاء في داخل الجماعة والاكتفاء بأفرادها فرصة للاستثمار "وكذا هي فرصة لا تعوض للعمل على توثيق الوشائج واستثمار الاوقات مع أولئك القلّة من الأرواح الطاهرة المتآلفة الذين بقوا مع الحق وإياه وعايشوا وتحملوا كما عايش هو وتحمل وشربوا من الكأس ذاته، كأس حب الولاية أو ما يسمى بكأس " جمر الغضا". [30]

---

[27] محمد سبيلا، **الايدلوجيا**، ص17

[28] مقطع من أحد النصوص الشارحة التي يتم فيها توصيل المفاهيم الخاصة بالجماعة وترسيخ أفكارها ومبادئها ونظمها.

[29] الوكلاء هم الخمسة الذين يمسكون بزمام الأمور في داخل "الأمر"، وهي شخصيات بارزة في التنظيم، هؤلاء الوكلاء يتولون تسيير شؤون الحلم والغلاف والجماعة.

[30] المصدر السابق..

حيث رحم الجماعة، كان يدور كأس الحلم، يشعرنا بتميزنا عن الآخرين، كوننا أرواحاً طاهرة تقبض على جمر الغضا، تشرب الحق وتتذوق ما لم يذقه الآخرون، وتتحمّل ما لا يحتمله المخالفون.

في داخل غلافنا الذي يخلط بيننا دون أن يخالطنا بالآخرين، نجد أنفسنا نؤلف ثلّة مندغمة متماسكة متماثلة منسجمة، لا يترك الغلاف ثمة مسافة بين ذات وأخرى تتيح لأحدها أن تعرف ثغرات الأخرى أو عيوبها، تشترك جميع هذه الذوات في الرغبات والأفكار والطموحات والأحلام والاهتمامات والمشاعر والانفعالات والتحركات، "فإنه ما من أحد من مخالف أو مؤالف إلاّ ويشهد بانسجامنا وتآلفنا وتوحّدنا بشكل نُحسد ويُغتاظ عليه"، تفتخر رابحة[31].

هرم النصّ

داخل الغلاف، تنتظم علاقات الأفراد وفق ترتيب هرمي يمر عبر قنوات تصل قمة الهرم بقاعدته والعكس, في قمة الهرم تقبع "النصوص" التي ترد إلى وكلاء الجماعة عن طريق المكاشفات أو الرؤى. تُسيِّر النصوص شؤون الجماعة وتحدّد حركتها وتوجهها. قلت، نجد "النصوص" في قمة هرم الجماعة، ولم أقل نجد "الإمام"، لأن النصوص هي ما نأخذ منه وعنه، هي ما نتعامل معه ونتحاور، هي ما نأتمر به وننتهي، أما الإمام فهو الأفق الذي يصلنا عنه ولا نراه.

لرؤية النص تشريف يقابل تشريف رؤية الإمام، لهفتنا لاستقبال نصّ الإمام وأمره يعادل لهفتنا لاستقبال شخص الإمام، وتقديسنا لما يصلنا عنه، هو تقديس لمنزلته وحضوره ووجوده فينا "الأوامر يجب أن يكون لها باب استقبال ودار تشريفات نقاء في الفؤاد لتحتضنها المحبة الراسخة لأهل البيت (ع) احتضان الطير لبيضه، فيصدر عنها الطاعة العمياء. وإن مقدار ما تؤدي فإنما هو مقدار وتعبير صدق ما تحب"[32].

لكن كيف يكون تكريم هذه النصوص والأوامر؟

يجيبنا الوكلاء الذين يمسكون بهرم الجماعة " إن تكريم هذه الأوامر الشريفة وإنزالها منزلتها هو أن لا تستعمل قبالها " كيف" و"لماذا" و"ما بال"، فإنك بهذه التساؤلات إنما تزعجها وتزلزلها من مستقرها وتستعد لطردها"[33]

تحت قمة الهرم، يحضر الوكلاء الذين اختارهم "نص" الإمام ليباشروا تنظيم أمر الهرم وفق تسلسل يراعي تدفق النصوص والأوامر والتكليفات والتشريفات والمكاشفات والمعلومات

---

[31] **حوار مع رابحة الزيرة**، علي أحمد الديري.
[32] أحد النصوص الشارحة..
[33] المصدر السابق..

والمتغيرات، حسب قرب أو بعد الفرد من قمة الهرم. التسلسل الهرمي يتحدّد بمجموعة من الامتيازات، منها السمات الشخصية والقيادية والفكرية عند الفرد، ومستوى حماسه ونشاطه وكفاءته وقدرته وفاعليته، يقترن ذلك كلّه بالإخلاص التام للحلم، والذوبان الكامل داخل غلاف الجماعة، وهما الميزتان الأكثر أهمية في التفاضل الهرمي.

كانت قدمي تمسّ أرض الواقع، حيث قاعدة الهرم، والقمة رفيعة، وعيني تنشد الأفق المقدّس، ولكي أحظى بالتشّرف بالاقتراب من الأفق، ذبت في جدار الغلاف، ومحوت من قاموس مفرداتي الكلمات التي تخدش الخلوص وتزعج التشريف، صرت لا أستعمل "كيف" و"لماذا" و"ما بال". صرت لا أسأل ولا أعترض ولا أنقد، صرت ذاتاً مغلّفة حد الانغلاق، لا تجيد ذاتي سوى عبارة واحدة: معك معك أيها الحلم، بكل يقيني وتسليمي وانفعالاتي ومشاعري وأحاسيسي وهويتي..

حضور واحد

بهذا عمل الوجه الداخليّ للغلاف، على تشكيل ذاتي الجماعية الذائبة في الجماعة، المتماثلة معها في انفعالاتها ومشاعرها وأحاسيسها وحتى في مهماتها. صارت مهماتنا مشتركة كما الحلم.

المهمة المشتركة هنا هي آلية العمل التي نتبناها داخل الجماعة لكي نصل إلى الرغبة أو الحلم[34]. تتحرك الجماعة في الخارج كمغلف واحد مجتمع، لا كأفراد متمايزين.

كنا نمثل حضوراً جماعياً مكثفاً في ساحات وأنشطة اجتماعية أو سياسية أو دينية أو ثقافية بعينها، ونغيب غياباً جماعياً ملحوظاً عن ساحات أخرى بعينها، يعود ذلك للمهمّة المشتركة التي كانت تحرّكنا كأفراد معاً، وتوجّهنا معاً. لذلك كان البعض يجعلنا موضع تندر حين يرى حضورنا الملفت في مكان ما. لا يحضر الفرد منا لوحده بل يحضر مرتدياً غلافه. يلازمنا الغلاف في الإقبال على قراءة كتاب بعينه، أوالقراءة لكاتب بعينه، أو حضور فعالية أوندوة أو محاضرة، أو حتى مشاهدة فيلم بعينه.

نحمل من خلال الجماعة ردود فعل مشتركة تجاه القضايا المحليّة أو العالميّة. تتميّز ردود الفعل بالفتور أحياناً أو الانفعال أو الاعتدال أحياناً أخرى. تتفاوت شدة الحضور والغياب والانفعال بحسب ما تعنيه الأحداث بالنسبة للحلم أو الرغبة أو الجماعة.

صار الغلاف حاستنا. لم نذق مثلاً مرارة عقد التسعينات (العقد المرّ)، لأن غلافنا لم يكن يتذوقه، لم يكن يستشعره.

---

34 يمكن الرجوع إلى مفهوم الحلم كما ورد في الحلقة 2

كان لنا غياب جماعي ملحوظ عن الأحداث المرّة التي شهدتها الساحة البحرينية خلال تلك الفترة، لم تكن الأحداث حاضرة حتى في حلقات نقاش جماعتنا إلا بالقدر الأقل، لم تكن تفاصيلها تعني شيئاً بالنسبة للحلم، لم تكن تتقاطع مع رغبة الجماعة، لم تكن ساحة خلاص نشهدها أو نشهد عليها، كانت كل تلك الأحداث تقع خارج عرف غلافنا واعترافه، خارج منظومته ومعطياته.

كنا نرى إلى الأحداث، بأنها اشتغال وقع فيه المخالفين والمحاربين، على نحو جعلهم ينشغلون عنا، عن المواصلة في النيل الآثم من "أمر الامام" المقدّس، كما عبّرت عن ذلك أختي الحركية الكبرى [35] ذات جلسة خلال اشتعال الأحداث.

الاحتقان الذي وقع بين الشارع والحكومة، أتاح لنا العمل في أجواء تستحضر الحلم بتوتر أقل وهدوء أكبر. جاء ذلك بعد سنوات صعبة قضيناها في تقلبات موجة دعاوي التكفير والتشهير والفتاوي المقاطعة والمحاربة التي اجتاحت الشارع الشيعي البحريني تجاه أفراد الجماعة. تسببت هذه الفتاوى في قطع الكثير من العلائق والصلات من قبل أقرب المقربين لبعض أفراد الجماعة. امتدت هذه الموجة منذ بدء ظهور أمر الجماعة للناس عام 1988 وخفّت مع بداية الاحداث التسعينية في البحرين 1994. عملت هذه الموجة على عزل الجماعة عن المجتمع بصورة عنيفة، كما هيأت لفصل هوية الجماعة عن عن هوية المجتمع بشكل قاطع وشبه نهائي. فكيف تعمّق كل ذلك؟

الناس النسانس

عمل الغلاف على تزويدنا كأفراد بهويّة موحدة فضلاً عن الحضور الموحّد، فالغلاف بقدر ما يضبط الأفراد ويوحدهم ويجمعهم معاً، فإنه يفاضل بينهم وبين غيرهم من الأفراد والجماعات الأخرى. هويّة الجماعة غلاف يفرِّق من أجل أن يُميِّز. بقدر ما كان الغلاف يعمل على أن يمايز ويفاضل أفراد الجماعة عن الآخرين في الداخل، فإنه يسعى لأن يخفي هذه المفاضلة في الخارج "نحن يجب أن تكون لنا شخصية حقيقية غير الظاهرية التي نسير بها بين الناس والأهل (....) تكون كغلاف يمنع الناس عن رؤية ما نملك من شخصية حقيقية عاملة تمتلك كنوز الثقافة والأسرار "[36].

الغلاف هنا عمل على عزل شخصياتنا الحقيقية عن المجتمع، لأن المجتمع الجاهل لا يستطيع استيعاب كنوز الثقافة والأسرار التي نمتلكها "جنوح عامة الناس عن الحق وعدم

---

[35] الأخت الكبرى، الأخ الأكبر، مصطلح يطلق على القناة التي يتصل الفرد من خلالها بالجماعة بشكل مباشر ومتاح في أي وقت، وعن طريقه يتلقى الفرد التوصيات والأوامر، وعن طريقه ينقل آرائه ومقترحاته لباقي الجماعة والوكلاء.

[36] أحد النصوص الشارحة

استيعابهم للكثير من المفاهيم التي يحملها خواص الأصحاب، جعلت هؤلاء الأصحاب في معرض الذم والاستنكار من جهّال الناس"[37]

الناس معرض ذم واستهجان، ومعاشرتهم تعرّض ما نملك من الكنوز للضياع والتحقير. يصلنا قول المولى[38] " فالحذر الحذر من الناس، فقد أقل الناس وبقي النسانس، ذئاب عليهم ثياب، إن استفردتهم خرموك، وإن استنصرتهم خذلوك، وإن استنصحتهم غشوك، وان كنت شريفاً حسدوك، وإن كنت وضيعاً حقروك، وإن كنت عالماً ضللوك وبدّعوك. فمعاشرتهم داء وشقاء، ومزايلتهم دواء وشفاء، ولا بد من أن يكون الداء مرارة وكراهة فاختر الدواء بمرارته وكراهته على الداء بغائلته وآفته".

النِّسْناس والنَّسْناس دابة في عِدادِ الوحش تُصاد وتؤكل وهي على شكل الإنسان بعين واحدة ورجل ويد تتكلم مثل الإنسان. وقيل هم خَلْق على صورة بني آدم أَشبهوهم في شيء وخالفوهم في شيء وليسوا من بني آدم، وفي الحديث عن أَبي هريرة قال: ذهب الناس وبقي النِّسْناسُ، قيل: مَنِ النِّسْناسُ؟ قال: الذين يتشبهون بالناس وليسوا من الناس، وقيل: هم يأْجوج ومأْجوج. وقيل النُّسُسُ هي الأُصول الرديّئَة (راجع لسان العرب تحت الجذر نسس).

وفق هذا التحذير الشديد من شر أكثر الناس، تغلّفتُ ضد النسنسة والذئبنة، ووجدت نفسي تصدّ (الصد بما هو فعل غلافيّ) عن إقامة أي علاقات جديدة، ووجدت حضوري يخف تدريجياً في علاقاتي القديمة، فما لي والاختلاط بنسانس وذئاب، ومالي أحتمل نظرات الحاقدين والمخالفين، ومالي أتعرّض والجماعة للخرم أو الخذل أو الشتم أو التحقير أو الحسد أو الضلالة أو الابتداع، ومالي أشغل نفسي بما يعيقني عن أن أختلي مستأنسة بالأرواح الطاهرة المتآلفة التي بقت مع الحق وإياه وعايشته وتحمّلته كما عايشه الإمام وتحمله وشربوا من كأس الحب ذاته.

بهذا صرت غلافاً داخل غلاف، غلاف صغير أدير من خلاله اتصالي وانفصالي وعلاقاتي ومشاعري وأحاسيسي وحبي وبغضي، وغلاف أوسع يدير عالمي الذي أعي من خلاله حقيقتي التي أعيشها في الداخل مقابل ظاهري الذي أسير به بين الناس، كما أعي من خلاله ظاهر الناس الذي يشبه الناس مقابل حقيقتهم التي تشبه النسناس.

هوية الغلاف

هويّة الجماعة غلاف يفرِّق من أجل أن يُميِّز، هوية الفرد داخل الجماعة هي ذاته الموصولة بذات الجماعة فحسب، تعتقد بأنها متّصلة بحقيقة عليا مقدّسة يعاد إليها ويحال إليها

[37] أحد النصوص الشارحة
[38] إشارة إلى الامام المهدي أو خاصة أصحابه

ويشرب من كأسها، هذه الذات لا يعود يغريها الاتصال بفروع هويات أخرى نسناسية أو ذئبوية، فتصير هويتها غلافاً يفرق لا من أجل أن يمايز، بل من أجل أن يجعل الذات تمعن في ذاتيتها، وبهذا تصير الذات جماعة مكتفية بأصلها، جماعة في غير غيرها، جماعة فاقدة لصلتها بالغير، جماعة منبعثة في ذات، وتفتقد أن تكون ذاتاً متصلة بجماعة.

خارج الجماعة ليست العلاقة بالذوات الأخرى سوى ضرباً من المخالطة والمزايلة: "خالطوا الناس بألسنتكم وأبدانكم، وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم"[39]. هذه المخالطتين، الظاهرية والحقيقية، تحيل الذات الجماعية إلى وجودين: وجود بدن ظاهر، ووجود عمل حقيقي، وتجعل من خطابها خطابين: خطاب لسان ظاهر، وخطاب قلب حقيقي، فتصير الذات الجماعية ذاتاً مزدوجة، تخفي وجهاً وتظهر آخر، تظهر بين الناس بوجود، لتعيش في داخلها وجود مغاير، فالمغايرة هنا ليس شيء آخر، بل هو وجه آخر، تخلعه كلما دخلت جماعتها وترتديه كلما خرجت.

الجماعة هنا تمثِّل المخالطة (بمعنى تظهرها)، لكن لا تتمثّلها، بهذا تصير المخالطة فعل عيش لا تعايش، فعل مصلحة لا تصالح، فعل تمثيل لا تمثّل.

لا تتداخل الجماعة مع الخارج إلا بمقدار ما يستدعيه حضور البدن، لا القلب.

أخطر ما تخشاه الجماعة هي أن تخرج ذات من ذواتها عن مخالطة الآخرين بالبدن، لتدخل في مخالطة القلب والعقل والفكر والروح.

"يوم الخلاص" بين بشرى خلاص العالم وبشرى إخلاص الجماعة للحلم.. هروب5

في الهروب السابق لا يحضر الفرد منا لوحده في أي عمل إلا مجتمعاً في غلاف. الغلاف بما هو نسق مشترك من القوانين والأعراف والممارسات الجمعية[40]، يلازمنا في الإقبال على قراءة كتاب بعينه، أوالقراءة لكاتب بعينه. توصيات من قيادات الجماعة، بقراءة مشتركة ومكثّفة لبعض الكتب التي فيها ما يؤكّد حقيقة غلافنا وأحقيته، ويثبّت يقين أمرنا وقداسته، ويجعلنا نذوب في الحلم أكثر وأكثر.

كتاب "بناء القادة في منهج أهل البيت" للشيخ محمد فورزي كان من أوائل الكتب التي طالعناها بشغف شديد، عمل هذا الكتاب على تهيئة أرضيتي للطاعة المطلقة من خلال الرويات

---

[39] من أحاديث كتاب " يوم الخلاص" التي عملت في وعيي الجماعي، كما سآتي عليها في حلقة قادمة.

[40] راجع مفهوم الغلاف في الحلقة السابقة

التي ينقلها التراث الشيعي حول التسليم المطلق عند خاصة أصحاب أهل البيت. ثبّتت هذه الروايات عندي أيضاً مفهوم الشخصية الظاهرية للمؤمن التي تخفّي شخصيتة الحقيقية، وذلك على النحو الذي تناولته في الحلقة السابقة تحت مفهوم (المخالطة والمزايلة).

من جهة أخرى عملت كتب السيد حسن الأبطحي التي كنّا نتلقفها بشغف ولهفة خاصين، على تعزيز ما تأسست عليه فكرة الجماعة، كون الامام المهدي يتصل بخاصة أصحابه ويقوم بتسيير شؤونهم وحاجاتهم الخاصة، وكونهم – الخاصة– مجهولون بين الناس، ولهم ظاهر بسيط يخفي ما يملكون من كنوز المعرفة، على نحو لا يكاد يعرف أو يلاحظ بين الناس.

كتب الأبطحي كان لها حضورها الخاص داخل الجماعة لما تحوي من مزج بين الروح والغيب وبين حضور الامام المهدي. "اللقاء مع الامام صاحب الزمان"، "بين يدي الاستاذ"، "سير إلى الله"، "عالم الأرواح العجيب"، "معراج الروح"، كتب قرأتها بنفس العاشقة المتلهفة للحظوة والحضور والتشرّف باللقاء. بعض هذه الكتب لم يكن قد ترجم عن الفارسية بعد، إلا أننا كنّا نحرص على اقتناء هذه الكتب وطلبها من الجمهورية الاسلامية في إيران، ليقوم بعض أفراد الجماعة من ذوي الأصل الفارسي بترجمتها إلى العربية.

كتاب "الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا" لناجي النجار، أيضاً آخر من الكتب الذي جعل من أرضية الخروج (فأعدوا للخروج إعدادكم للمحافل)، أرضية خضراء داخل نفوس أفراد الجماعة، ونظريته التي تجعل من مثلث برمودا جزيرة الامام المهدي، لاقت رواجاً وترحيباً في نفوسنا كأفراد – دون أن يتم التأكيد على صحتها من قبل الوكلاء[41]–. شخصياً وجدت في هذه النظرية بشارة تظهر أن إعداد الإمام لخروجه، يقوم وفق خطة متكاملة يرعاها الامام بكل تفاصيلها وتشعباتها، بدءاً من إعداد الأفراد المنتشرين في مختلف بقاع الأرض، وانتهاء بالإعداد التكنولوجي الذي يفوق قدرات البشر العادية كالأطباق الطائرة التي صورها الكتاب.

تلك بعض الكتب التي مهدت لتشكيل وعيي الجماعي داخل غلاف، وعملت على تعزيز عدد من المفاهيم الخاصة والمعتقدات التي أسّست هذا الوعي منذ بدايات انضمامي لهذه الجماعة وخلال خط سيري في داخلها.

الولاء للجماعة

تعمل الجماعة على تحويل حلمها إلى حقيقة، وتستعمل في ذلك طريقاً تراه نافذاً لإقناع أفرادها بحقيقة ما هي/هم عليه، ولتثبيتهم فيما هم ماضون عليه. تستنهض الجماعة كل ملكاتها

---

41 الوكلاء هم الخمسة الذين يمسكون بزمام الأمور في داخل "الأمر"، وهي شخصيات بارزة في التنظيم، هؤلاء الوكلاء يتولون تسيير شؤون الحلم والغلاف والجماعة.

لجعل أفرادها، ينخرطون في الحلم ويمضون إلى داخله بقوة، دون أن يحدثوا أي دوائر تزعج القاع الذي استقر فيه الحلم في داخل نفوسهم.

لذا توظّف الجماعة أدوات التبليغ والاستقطاب والتثبيت، التي تستقيها من مخزونها الأقرب إلى قناعات أفرادها ومسلّماتهم وبدهيّاتهم، وفي هذا تقوم بإنتاج ما به تشرعن وجودها وتؤسس لاستمراره.

تسبغ الجماعة على وجودها قداسة رمزية تستلزم تثبيت حلمها في الذات الجماعية وإبقائه بقوة. من ناحية أخرى تعمل على أن تخرط أفرادها في داخلها أكثر، وتثبتهم وتحميهم عن أن يميلوا خارجها، وهذا ما تفرضه الجماعة على أفرادها في نص القسم "أن الطاعة والولاء لكم، وأن لا أحول ولا أميل ميل الانحراف عنكم..". الميل للداخل أمن وحماية وبلوغ لعمق البحيرة، والميل للخارج انحراف يقدح في جهد الأَيْمَان (سآتي على تناول القسم في هروب قادم).

الجماعة الوسيلة

تعمل الجماعة على زيادة يقين أفرادها بحقيقة حلمها، كما تعمل على ردع أي تضارب أو اختلاف في الرأي يأتي من الخارج أو من الداخل، ذلك أن الجماعة غلاف يتشكّل على أساس رغبة صعبة ذات طابع خلافيّ، ولو لم يكن طابع رغبتها خلافياً، لما كانت رغبتها صعبة، ولما تشكّلت جماعتها.

تدعم هذه الجماعة حلمها منطلقة من قيمتين، القيمة "الغاية" وهي: نصرة الإمام المهدي عند خروجه، وهي قيمة لها حضورها عند "معاشر شيعتنا"، وتتحلى بتأثير قوي قادر على استمالة واستقطاب جمهور عريض من الشيعة.

لكنها، أي الجماعة، تدعم حلمها بقيمة أخرى هي "الوسيلة"، وهي التمهيد لنصرته، وترى أنها هي نفسها "الوسيلة". وحول هذه "الوسيلة" يدور الاختلاف والتعارض والتضارب مع باقي الجماعات الدينية الشيعية في البحرين. ورغم كون القيمة "الوسيلة" تصب في القيمة "الغاية"، إلا أن هذه الوسيلة هي موضع الاختلاف الذي استدعى من المجتمع محاربة قوية من المجتمع لهذه الجماعة، كما استدعت أيضاً، أن تعمل هذه الجماعة على تثبيت أفرادها في داخلها بقوة، والعمل على تكريس ميلهم إلى داخلها أكثر وأكثر.

بدأت جماعة "الأمر" بتوظيف المخزون الديني الشيعي –باعتباره أحد أهم دعاماتها في داخل جماعتها– لتثبِّت به صحة "وسيلتها" وصدقيّتها، ولتكوِّن وعياً جماعياً لدى أفرادها، مفاد هذا الوعي هو أنها ضحية جهل المجتمع ب"الغاية"، وأن ما أصابها من حرب وإقصاء ما هو إلا

قليل من كثير موعود به، مما هو مثبت في الأحاديث النبوية والروايات الواردة عن أهل البيت، التي يحتفظ بها التراث الشيعي في كتبه ومراجعه الموثوقة والمؤتمنة.

يوم الخلاص

كتاب "يوم الخلاص"، الذي حقّقت طبعاته مبيعات خيالية خلال الثمانينات من القرن الماضي، وكانت طبعاته كما يؤكِّد مؤلفه، تتلقَّفها الأيدي لتنفذ خلال أشهر قليلة من نزوله في الأسواق (الطبعة الأولى 1979)، جاء في فترة تاريخيّة حسّاسة، تمكّن فيها الإسلام السياسي الشيعي من تحقيق انتصاره في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وانتشر في تلك الفترة الاعتقاد بأن السيد الخميني، قائد الثورة الإسلامية الإيرانية، يتلقى تسديدات غيبية من الإمام المهدي الذي سدّد هذا الانتصار وباركه. كما برزت كتب تعزِّز هذه الرؤية، ربما كان أهمها كتاب "ملائكة الغيب قادمون" الذي عمل أيضاً على استحضار الإمام المهدي في الوعي الشيعي بين صورتي الغائب الحاضر، والبعيد القريب، والمحتجب المتابع عن كثب.

يرى "كامل سليمان" مؤلف "يوم الخلاص" أن كتابه يحمل "بشرى الخلاص بيوم الخلاص"، وهو من خلاله ينذر "بظهور مخلِّص موكَّد من الظهور، آمن الناس به أم كفروا"[42]، كما يقدّم لخروج قريب، يرى أن زمننا هو زمنه " ثورة المهدي على الباب"، و" إن أمر المهدي كالموت الذي نفر منه سواء بسواء" [43].

يضمّ "يوم الخلاص" عدداً كبيراً من الأحاديث والروايات التي ينقلها التراث الديني الشيعي عن أحداث آخر الزمان، وأحوال الناس في هذا الزمان، وقد صار بهذا مرجعاً تعود له عامة الناس، كما علماءها، في رصد علامات آخر الزمان، ومن ثم تقريب هذا الزمان من زمنهم الذي يعيشون، مواساة لأنفسهم بقرب الخلاص، وقرب نهاية الظلم الواقع على الإنسان، عبر مطابقتها وقراءتها وربطها بما هو طي الكتاب من أحاديث وروايات.

ولأن الروايات تتحدث عن الظلم الواقع على العالم بشكل عام، وعلى الجماعة الشيعية بشكل خاص، فقد انتشر بين الأوساط الشيعية حتى كاد أن لا يخلو منه بيت شيعيّ، وأصبحت مطابقتهم بين حالهم وأوضاعهم وما يقع عليهم من ظلم متمثل في سلطة أو غيره، وبين ما تشابه معها مما ورد ذكره في الروايات، أمراً حتميّاً، باعتبار أن كل ما ذكرته الروايات هو من علامات الظهور، وأن العصر الذي نحن فيه هو عصر الظهور.

كل حدث نمرُّ به، صار علامة من علامات الظهور، كل إشارة ترد علينا، صارت تحمل دهشة المطابقة، وكل معاناة تصيبنا أصبحت تأكيداً للظلم الواقع آخر الزمان.

---

[42] كامل سليمان، يوم الخلاص، ص26

[43] كامل سليمان، يوم الخلاص، ص28

أصبح الظلم نذير خلاص، والظلام رجاء انتظار، والكرب دعاء بتعجيل الفرج. كلما همَّ همُّ الدنيا الظالمة في القلب، وجد القلب الحزين له في "يوم الخلاص" مواساة تبشره باقتراب ساعة الخلاص.

نحن ويوم الخلاص

في داخل الجماعة، كما في داخلي، كانت كل رواية علامة لنا، علامة على بلوغ حلمنا، علامة على صدق قهرنا، علامة على ضرورة غلافنا، علامة على خالص خلوصنا، علامة قرب خلاصنا، " فكل شيء يتحول إلى إشارة أو نذير لمن يترقب، ويستعد للانبهار، ويتهيأ للتأويل، ويتحضر لتوهّم التطابقات والتشابهات"[44].

كلما حاربنا المجتمع الديني، كلما قاطع، كلما أسقط، كلما اتهم، كلما تقوّل، كلما آذى، ازددتُ يقينا أننا نحن المؤمنون المبتلون المعنيون في آخر الزمان، أننا نحن المخلِصون المخلَّصون، أننا نحن المحتقرون المُذَلّون المهانون المحزونون، أننا نحن الخيرة المصطفاة، أننا نحن الأنذر الأنذر، أننا نحن الكبريت الأصفر، أننا نحن الباقون حين يخرج من هذا الأمر أكثر القائلين به، أننا نحن من يعضّ على جمر الغضا، أننا نحن الكحل الذي يبقى في العين، أننا نحن ما يبقى من الملح في الطعام.

كل هذه الإشارات التي تحملها الروايات رأيناها تؤول حالنا وتتماهى معه لدرجة التطابق، كان كتاب يوم الخلاص –الذي اعتبرته مرجعي الذي يلازمني في قيامي وقعودي إبان اشتعال أحداث المقاطعة– يقول لنا الكثير، كانت رواياته تأتي لتحول مفاهيم الزمان والمكان والجمع والمؤمنين والمبتلين والمعذبين، ولتضعها جميعها في سياقاتنا، لتنطقها بلسان حالنا، لتجعلها تعيش اللحظة فينا، وتستقي أحداثها من الأحداث الواقعة علينا، وتأخذ مسارها من مسار "الأمر" فينا.

هكذا أوَّلت الواقع بقراءتي التي كانت تقرأ من خلال الجماعة، وأبهَرَتني المطابقة بين ما كنت أقرأ وما كنت أرى..

طابقناه بالحلم حين جعلنا من زمن الروايات زماننا وجعلناها شاهدة على هذا الزمان، وعلى أشخاصه، وعلى أحداثه، وعلينا نحن.

---

44 أمين معلوف، **رحلة بالداسار**، ص11

التأويل حسب بول ريكور "هو جعل ما هو بعيد في الزمان والمكان والثقافة، قريباً". لكن تأويلنا طابق الزمان والمكان وجعله حقيقة ويقيناً لا يرقى إليه الشك، فتحول فينا تثبيتاً، واستمالة بنا، من خارج يزخر بالمبطلين المظلين الجاهلين الكثرة (المجتمع)، إلى داخل قلة أفراده المتقين المؤمنين المبتلين (الجماعة).

فعل المجتمع الذي أراد إبطال عقيدة الجماعة، والميل بأفرادها عنها بالمقاطعة والمحاربة، أنجز شيئاً معاكساً داخل معظم أفراد الجماعة، وحَّد هذا الفعل بين شواهد روايات الخلاص، وبين مشاهد فعل المجتمع فيها، وطابق بين سياقاتها وسياقات الحلم والرغبة، وسياقات انتظار الخلاص بالموت " إن أمر المهدي كالموت الذي نفر منه سواء بسواء"[45] .

روايات الخلاص

من الروايات التي استأنست بها الجماعة واستحضرتها بقوة وتمثلتها في ذروة اشتعال الموجة الدينيّة الشيعيّة عليها:

- " عندها يذوب قلب المؤمن –بالحلم– في جوفه كما يذوب الملح في الماء"[46]
- "المؤمن يمشي بينهم بالمخافة، فإن تكلم أكلوه، وإن سكت مات بغيظه"[47]
- "خالطو الناس بألسنتكم وأبدانكم، وزايلوهم بقلوبكم وأعمالكم، فوالذي نفسي بيده، لا ترون ما تحبون –بلوغ الحلم– حتى يتفل بعضكم في وجوه بعض – وهو ما حدث بالفعل لبعض أفراد الجماعة–.." [48] .
- " يكون المؤمن –بالحلم– محزوناً محتقراً لا يستطيع أن ينكر إلا بقلبه"[49].
- " والله لا يكون ما تمدون إليه أعناقكم – بلوغ غاية الحلم– حتى تمحصوا ولا يبقى منكم إلا الأندر الأندر".
- " والله لتكسرن كسر الزجاج، وإن الزجاج ليعاد فيعود كما كان. والله لتكسرن كسر الفخار، وإن الفخار لا يعود كما كان" [50]

بهذا جسّدت الروايات حالنا، أو هكذا كنا نرى أنها فعلت. الروايات البعيدة في سياقها ومكانها وزمانها، صارت واقعاً تخفّفُ علينا، تصف حالنا، تواسينا، توصينا، تحدّثنا، تمحّصنا، تحذّرنا.

---

45 كامل سليمان، يوم الخلاص
46 أنظر كامل سليمان، **يوم الخلاص**، ص222
47 المصدر نفسه، ص222
48 المصدر نفسه، **ص240**
49 المصدر نفسه، ص222
50 المصدر نفسه، ص238

وتعمل مقولة "التكسير" –التي حُفرت في ذاكرتي بشكل خاص وكان لها وقعها الخاص– على تقليب أفراد الجماعة بحذر ممزوج بتوتر، بين كسر الزجاج الذي يُعاد فيعود كما كان، وكسر الفخار الذي لا يعود كما كان.

تمثّلي لهذه المقولة، مارس دوراً ليس في استمالتي وتدعيم وجودي في داخل الجماعة فقط، بل في تكسير أي رغبة عندي في التحرك خارج إطار الغلاف وحدوده خوفاً من التعرّض للكسر، فالتكّسر هنا كما فهمته انحراف وضياع، ومن ينحرف قد يعود بجهد ومشقة (كما يعود الزجاج) وقد لا يعود أبداً (كما لا يعود الفخار).

واللا عودة كما أفهمها هنا هي انحراف عن مسيرة الوسيلة، هو انحراف عن بلوغ الغاية والحلم والرغبة والاستحالة، هو تعالي على القدس، هو جري إلى الوراء، هو (كُلّ) على الإمام " فلست لمن ليس لي، فمن لم يكن كلّه لنا، كان كلّه علينا"[51] .

يتكسّر الفرد حين لا يكون غلافاً، وعندها يصير فخاراً، لا يعود ابداً كما كان..

الهروب السادس

سكون في عمق البحيرة

الحصاة.. الحصاة الصغيرة هي أنا في بداية تجربتي مع جماعة "الأمر"، أنا بدوائرها، أنا بأسئلتها.. ثم أنا بهدوئها، أنا القابعة في عمق البحيرة، أنا الجماعة، أنا المغلّقة، أنا الحالمة، أنا المؤتمرة، أنا المستجيبة، أنا المطيعة، أنا غير القابلة للكسر..

مقولة التكسير في الحلقة السابقة " والله لتُكسَّرن كِسَر الزجاج، وإن الزجاج ليعاد فيعود كما كان. والله لتُكَسَّرن كِسَر الفخار، وإن الفخار لا يعود كما كان"، عملت على إبقائي في صورةٍ "قابلةٍ للكسر" و غير "قابلةٍ للمسّ" كتلك العبارة التي تكتب على المعروضات الثمينة خوف تعرضها للكسر أو للتلف.

[51] أحد النصوص التي وردتنا عن المولى.

تكسّرت عندي كل رغبة في التحرك خارج إطار الغلاف، أو الإنطلاق خارج ممره الآمن[52]، أو التفكير فيما خرج عن منظومته المخلّصة..

تكسّرت في داخلي كل حركة قد تزعج هدوء البحيرة أو تقلق طمأنينتها وسكونها..

في هدوء البحيرة

"عندما رماني الله حصاة صغيرة في هذه البحيرة العجيبة، أزعجتُ هدوءَها بأن أحدثتُ على سطحها دوائر لا يُحصى عددها، لكني عندما بلغتُ إلى أعماقها، صرتُ هادئة مثلها"[53].

عبارةٌ أعجبتني بالقدر الذي صرت أتمثلها بزهو كلما استجد عليَّ أمر، أتمثلها في معرض الإشادة، بقدرة هذا "الأمر" على تطويع حصاتي المزعجة، سريعاً، ساحباً إياها إلى عمق البحيرة.

أشيد بهذه العبارة في معرض الفخر، بأن حصاتي التي كانت متمردة بجهلها، مقاومة سلطة الضبط، سرعان ما سَلّمت، بعد أن عقِلت عمق الحلم، وذابت في يقين الغلاف.

الدوائر التي أحدثتها هذه الحصاة بداية ورودها سطح الجماعة، بتساؤلات جهلها وسطحيتها، وجدالات لا معرفتها المُعيبة، ومناقشات لا يقينها القاصر، خمدت، حين توغلت في سر الجماعة، واشتركت في خصوصية أمرها، وولجت عميق حلمها، وحملت عظيم أمانتها، ولبّت فاضل رسالتها.

بمثل هذا الهدوء فقط، تُكَرِم الحصاة الصغيرة، الأوامر الشريفة العظيمة، وتستقبل النصوص المقدّسة، فتعقل الحلم، وتبلغ العمق المقدّس.

أليس قد بلغ حصاتي أن "تكريم الأوامر الشريفة وإنزالها منزلتها هو أن لا تستعمل قبالها " كيف" و"لماذا" و"ما بال"، فإنك بهذه التساؤلات إنما تزعجها وتزلزلها من مستقرها وتستعد لطردها"[54]

أليس قال المولى: "الأوامر يجب أن يكون لها باب استقبال ودار تشريفات نقاء في الفؤاد لتحتضنها المحبة الراسخة لأهل البيت (ع) احتضان الطير لبيضه، فيصدر عنها الطاعة العمياء، وإن مقدار ما تؤدي فإنما هو مقدار وتعبير صدق ما تحب"[55]

الحصاة الصادقة في محبتها إذن، هي تلك التي لا تزعج هدوء البحيرة بأسئلتها وفضولها المعرفي، هي تلك التي تسلّم بأمر الرؤيا وتستجيب لها مطلقاً، "فليس في هذا الأمر إلا الطاعة

---

[52] راجع حلقة 3

[53] قرأت هذه العبارة في نهاية الثمانينات ولا أذكر مصدرها، وقد كنت وضعتها في كتيب صغير ملأته بالعبارات التثبيتية، والتي كانت تزيد من ايماني بالحلم، وتعطيني حماساً وايماناً.

[54] أحد النصوص الشارحة..

[55] المصدر السابق.

العمياء"[56]، والطاعة هي إحدى المبادئ الأساسية التي يؤديها الفرد أول دخوله الأمر، مع نطقه للقسم " أقسم بالله جهد أيماني أن الطاعة والولاء لكم" (سآتي على تفصيله في هروب قادم)

طاعة الحصاة

لكن ما هي حدود الطاعة في هذا "الأمر"؟

يحق للفرد إبداء رأيه فيما يسمّى بالتوجيهات العامة أو المقترحات أو التوصيات، وهي ما يأتي بغير صيغة "الأمر" من قبل الوكلاء أو القريبين منهم. لكن لا يحق للفرد بأي حال من الأحوال إبداء الرأي فيما يصله تحت مسمّى "الأمر"، وهو ما يصدر مباشرة من الإمام أو من مجموعة الوكلاء.

في حالة صدور "الأمر" يجب على فرد الجماعة الاستجابة الفورية، دون إزعاج بحيرة هذا "الأمر" بإبداء الرأي أو السؤال.

" إمامنا القائم أعلم من سائر الناس في زماننا، والرابطة أعلم الحركة من سائر الأفراد، فإذا تلقّت الرابطة توجيهات الإمام وتلقت المعلومات المرفوعة إليها من قبل الأفراد ثم أصدرت أمراً، أليست هي في هذه الحالة أعلم بما أمرت من غيرها؟ ولو أن مُخْلِصاً نوى راضياً وتأمل هذا التأمل لكفاه، وحجزه عن إبداء رأيه"[57].

توضح الشروحات حدود الطاعة الواجبة في داخل "الأمر"، "نقرأ جميعاً قوله سبحانه: فلما بلغ من السعي قال يا بني أني أرى في المنام إني أذبحك، فانظر ماذا ترى، قال يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين، نقرأ هذه الآية ونقول إن إبراهيم وإسماعيل أطاعا ربهما طاعة عمياء. وإسماعيل "ع" نعرف طاعته العمياء في سرعة الإجابة: يا أبت افعل ما تؤمر، والتصديق بالرؤيا لأنه اعتبره أمراً "ما تؤمر" ولم يثر في وجه هذا الطلب الغريب تساؤلاً أو اعتراضاً، فإنما هو عبد ليس له إلا الطاعة"[58]

لم يكذّب اسماعيل الرؤيا بل صدقها وتهيأ لها، لم يُبدِ إسماعيل رأياً أمام أمر الرؤية، ولم يسأل كيف ولماذا وما بال، بل كان جوابه صبراً: يا أبت افعل ما تؤمر..

كيف لحصاتي إذن أن تتعالى على رؤى "الأمر"، أو تزعج "أمر" الرؤى، كيف لها أن لا تترقب أوامرها بايمان يشبه إيمان إبراهيم، وبتسليم يشبه تسليم إسماعيل، لم يعد لحصاتي إلا الطاعة، لم يعد لها أن تبدي، حتى بين طيات هواجسها الداخلية، أي ريبة أو شك، بل أي رأي أو وجهة نظر..

---

56 أحد النصوص الشارحة.
57 المصدر السابق..
58 أحد النصوص الشارحة.

صار "الأمر" بالنسبة لي أمراً كلّه، ليس فيه إلا الطاعة.

التوصيات والتوجيهات والمقترحات التي لا تحمل مسمّى "الأمر" صارت ترد في داخلي مورد "الأمر"، أتلقف النصيحة بإيمان الأمر، وأسلّم بالرأي تسليمي للأمر، بل لا يكاد أن يردني رأي باسم الوكلاء، حتى يسري فيّ سريان الأمر غير القابل للرد أو النقض أو الاعتراض.

صار اسم "جماعة الأمر" ، لا يعني بالنسبة لي فقط أن جماعتنا تشكّلت بأمر خاص من الإمام، بل صار يعني أن جماعتنا ليس فيها إلا الطاعة، كل ما يأتينا من (فوق[59]) إما أن يكون أمراً وإما أن يقوم في نفوسنا مقام الأمر.

بالأوامر تتهيأ الجماعة لبلوغ الحلم، وبالطاعة تسكن في عمق البحيرة.

ثورة الجماعة

الجماعة فوق الشك، فوق السؤال، فوق مس الجذور، فوق شعار "ثورة ثقافية تبدأ من الجذور"[60]، فوق إطلاق أي ثورة.

قد تتبنى الجماعة ثورة ثقافية، كما تفعل الآن من خلال مشروع جمعية التجديد[61] "عندما نطق السراة"، فتطلق ثورة ثقافية تبدأ من الجذور. قد تمسّ هذه الثورة جذور كل ما يقع خارج الجماعة، تزلزل أصوله، تقتلعه أو تبيده، يمكن لهذه الثورة أن تمسّ كل شيء، أن تزعج أية ثقافة لا تتناسب معها، أن تحدث دوائر مزعجة على سطح أي فكرة، أن تضرب في عمق أي بحيرة تشتبه في تحريفها أو تزييفها أو انحرافها أو ضلالها أو أو [62]، أن توترها.

لكن هذه الثورة لا يسمح لها أن تقترب من الجماعة، أو أن تمسّ جذورها، فأمر الجماعة لا يمسّ، حلم الجماعة لا يمسّ، رحم الجماعة لا يمسّ، رغبة الجماعة لا تمسّ، خلاص الجماعة لا يمسّ، غلاف الجماعة لا يمسّ، بحيرة الجماعة لا تمسّ، كل ما التصق بالجماعة لا يمسّ، ولا يسمح بإزعاج هدوء يقينه وتسليمه.

في داخل الجماعة ليس إلا السكون في يقين الحلم..

بهذا اليقين، كفتّ حصاتي عن أن تطلب معرفة تضاد معرفتها ويقينها، "اليقين قرار بعدم الحاجة إلى المعرفة"[63]، فلا حاجة بحصاتي إلى معرفة تخرجها عن معرفتها، تخرجها عن يقين حقيقتها.

فقدت حصاتي خاصية التفكير..

---

59 فوق تعبير يستخدم في داخل الجماعة يرمز إلى كل ما يصدر عن الوكلاء.

60 جمعية التجديد السقافية، رؤيتنا، WWW.TAJDEED.ORG

61 جمعية التجديد الثقافية، هي المؤسسة المدنية لجماعة الأمر.

62 راجع موقع جمعية التجديد الثقافية، رؤيتنا، WWW.TAJDEED.ORG

63 أدونيس، مدارات ، جريدة الحياة

"ما هو شيء يفكر؟ إنه شيء يرتاب، يعني، يتصور، يقرر، يريد ولا يريد، ويتخيل أيضاً ويشعر"[64]. ديكارت.

الأمر ليس كذلك فيما يخص الأمر..

"كل شيء سيعطى في وقته"، "ستعرفين حين تكوني بحاجة إلى المعرفة"، "لا تسألي فيما قد تسيئك معرفته الآن"، "الأمانة التي نحملها فوق السؤال"، "التسليم أن تأخذي ما يأتيك دون أن تسألي".

وحده الحلم يلقنني ماذا أسال وكيف أسأل وفيم أسأل..

هكذا تأجلت معرفتي، تحولت إلى تفاصيل غائبة في الحلم، حتى يأذن لها الحلم بكشف، والكشف يكون بمقدار ما ألج بذاتي إلى عمق البحيرة، فهناك أرى ما لا يراه الرائي على السطح.

نحو عمق البحيرة توجهت، وعندما بلغت العمق فقط، سكن سؤالي، وسكنت معرفتي، وسكنت حقيقتي، وسكن يقيني، وسكن عالمي، وسكنت رغبتي، وسكنت أنا بحيرتي المقدسة، وصرت هادئة كروح الحلم المقدسّ حتى عام 2002..

تكسُّر ما لا يعود

في صيف2003، حين عادت حصاتي تحركها تيارات مائية هنا وهناك، وقد بدأت تعيش حيرة معرفية تحاول إعادة تشكيل قناعاتها. أثرتُ في المنتدى الحواري الالكتروني الخاص بالجماعة " الميزان"، موضوعاً تحت عنوان "تطاول السؤال"، تناولت فيه ضرورة أن نقوم بمساءلة قناعاتنا لتحريرها من الكثير مما يعتريها من المغالطات والاستيهامات.

كنت حينها أدير الحوار بقناعة فكريّة بسيطة جداً، وبتحفظ شديد، وحذر مبالغ فيه، من تطاول يمكن أن يمس مسلّمات " الأمر" وبدهياته. كان بدأ في داخلي إلحاح ورغبة خفية (لم أعلنها صراحة) أن أحرك موجات سؤالية عن أمور من الداخل ما زالت غامضة على أكثرنا، رغم كل ما عاصرناه وقضيناه في الأمر من سنوات. تساؤلات حول كيفية تشكيل هذا الأمر، وكيفية تلقّي النصوص والمكاشفات، وحول العالم الغيبي الذي نحيط أنفسنا به، كانت مثل هذه الأسئلة أقرب للمحرّمات في بدايات التشكيل، لكن لا يمكن أن تبقى هكذا بعد ما يقارب العقدين من الزمن على تأسيس الجماعة، وبعد أن تغيرت الإستراتيجية التي تتبناها الجماعة، وتحولها من جماعة دينية تنشد الخلاص، إلى مؤسسة مدنية تحمل شعار التجديد.

لكني لم أكن أجرؤ أن أبدأ بهذه الأسئلة حينها، بل بدأت بجرأة متواضعة (كوني لا أزال محكومة بإطار الغلاف)، تطلب فقط أن يُسمح للسؤال، أن يَعبُر فينا دون خوف من سقوط يشبه

---

[64] علي حرب، **أصنام النظرية وأطياف الحرية**، ص33

سقوط الزجاج والفخار، ودون اتهام بإحداث دوائر تشكيك في اليقينيات والثوابت التي لا تمسّ، بل من أجل تقديم فهم أوسع وأعمق لمعتقداتنا وآرائنا حتى نتمكن من جعل يقيننا عقلانياً لا غيبياً.

ردود الفعل جاءت معظمها على شكل غلاف، كانت المداخلات متحفظة وتحمل شيئاً من الاستنكار، رأى البعض في الآسئلة تمهيداً لخرق يقين الجماعة.

إحدى الأخوات أعربت عن استيائها من الموضوع أن يمسّنا، إلا أنها، كما غيرها من المشاركين، أبدت مرونة واستعداداً فيما يتعلق بمساءلة قناعات المجتمع وضحدها أو نفيها أو محوها أو تغييرها أو تحويلها.

ردود الفعل هذه جعلتني استدرك أن لا أثير حساسية الغلاف أكثر، فتراجعت قائلة أنني أعني مساءلة اليقينات التي ترسّخت فينا بفعل المجتمع، وليست تلك "الخاصة بنا وبجماعتنا"، حينها خفت لهجة الاستياء، " أنا أخذت الكلمات المكتوبه على صياغتها وعلى اعتبار أنها كتبت في منتدانا الميزان لقارئيه (وهم من) أحبتنا الملتحمين معنا في الفكر والانتماء، لا أنها يقصد بها المجتمع العام والخارجي. ولذلك كان ردي هكذا ". بهذا عقبت الأخت المستاءة.

طال الحوار، تباينت ردود الفعل والاستجابات..

في نهاية الحوار، جاءني رد شفوي "إذا كنت تعيشين شكّاً، فلا تسقطي الآخرين معك في الشكوك"..

هذه العبارة، جاءت بمثابة الأمر بالنهي عن تطاولي في التطاول، وبمثابة الأمر بالتوقف عن الاستمرار في إحداث دوائر مزعجة على السطح، أو توتير أجواء العمق الملتحم..

فصمتُّ ..

يخشى الغلاف السؤال، لأن السؤال فعل تكسير، والغلاف فعل ضبط وتلحيم..

تخشى الجماعات تكسُّر قناعات أفرادها بالسؤال، فتعمل على تلحيمها، بكسر عنق السؤال.

الهروب السابع
الداخل الفاضل والخارج الفضالة

في الهروب السابق، بدأ كسر عنق سؤالاتي، التي ظهرت وكأنها تمسّ جذور الجماعة، وبدأ توتر يرتسم على سطح بحيرتي، دوائر تكبر دون أن يسعها سطح البحيرة..

حصاتي التي أخذت تتردد متنقلة بين داخل البحيرة وخارجها، وتنشد معرفة تصل عمق البحيرة بسماء خارجها، وتأمل أن تفتح أفق البحيرة على فضاء خارجها، بدأت تتعرض لتحذيرات من خطر الخارج، إنه اللعب بالنار، أو اللعب مع النار.

كيف صورت لي الجماعة هذا "الخارج"؟ وكيف تنظر الجماعة لهذا "الخارج"؟

في هذه الحلقة أتناول مفهومين أساسيين سيكونان مفتاحي لفهم "الخارج" كما تراه الجماعة وكما تقدمه، المفهومان هما : السور، والفضالة..

السور

سور الجماعة كما أقدمه هنا هو حائطها (الشريف) الذي يفصل بينها وبين الآخرين. يميز هذا السور بين من ينتسبون لفاضل طينة الجماعة (الذين يشاركونها الحلم والرغبة) وبين من لا ينتسبون لفاضل طينتها (الذين لا يشتركون معها في الحلم والرغبة).

ينظر السور إلى الخارج على أنه سوء، لذا، فهو يحمي داخله من الاختلاط به أو الانفتاح عليه أو التداخل معه.

الفُضَالة

الفضالة في اللغة هي البقية وكل ما فضل من شيء. ترى الجماعة إلى وجودها أنه وجود خاص، مبارك وشريف وفاضل. أما الوجودات الأخرى فهي وجوات غير مخصوصة بالشرف وغير محاطة بالرعاية القدسية المباركة. هذه الوجودات لا تحمل رسالة الجماعة العظيمة ولا تسير بمسيرتها الفاضلة، كلما ابتعدت الوجودات الأخرى عن حلم الجماعة ورغبتها، صارت وجودات فارغة لا قيمة لها ولا معنى، صارت وجودات لعب وسوء. من هنا أفهم رؤية الجماعة إلى هذا الوجود بأنه وجود فِضَالة..

خارج السور

"حلمت وكأني كنت واقفا على حافة سور، أتفقد من هم في الداخل وارقب من هم في الخارج.

افتقدتك في الداخل، ورحت أبحث عنك بين الجميع، فلم أرك.
سألت الجميع: أين ذهبت؟ لا أرى لها وجوداً في الداخل ؟
قيل لي: ليست في الداخل. خرجت تلعب مع صبية لغة!
نزلت غاضباً ورحت أبحث عنك في الخارج وأنا أقول: الويل لمن يمسها بسوء!"
كتب لي (أحد وكلاء الجماعة) في 2003[65].

السُّورُ في المعجم هو حائط المدينة، وهو عند العرب أَشرف الحيطان[66]..

يحمي السور امتزاج سيرة المدينة بسيرة باقي المدن، ويمنع اختلاط جنس المدينة بجنس باقي المدن. يخشى السور تهدّد أصول المدينة فيعمل على حفظ هويتها نقية.

لذا اعتبرته العرب أشرف الحيطان، فالعرب تنظر إلى عروبتها قِوامَةً تميزها عن غيرها، وترى أصلها شرفاً تتفاخر به. فكأن السور يحافظ على نسبها الأصيل من أن يتهجّن تهجناً غير أصيل، بتزاوجه أو امتزاجه بنَسَب أقل شرفاً منه.

من هنا يمكن أن نفهم سور جماعة "الأمر" بأنه شرفها.. شرف الاختصاص ب"الأمر" المقدّس، شرف الانتساب إليه، شرف التحصّن به، شرف التمسّك به، شرف التسليم به، شرف الطاعة له، شرف التحرّك من خلاله، شرف الاكتفاء به، شرف الانكفاء فيه، شرف السكون في قاع بحيرته..

أما خارج السور فليس ثمة شرف مقدّس يميّزه..

حارس السور، هو ذلك الواقف على حافة السور. يحمي الداخل الشريف من الاختلاط بالخارج غير الشريف.. لعل هذا ما دعى (الوكيل الحارس) على تفقّدي في الداخل، وهو أيضاً ما به حكم على وجودي في الخارج، بأنه محض لَعِب..

فليس خارج السور إلا اللعب..

هذا الوجود، كما صوره حلم (الوكيل الحارس)، هو وجود لاهٍ لعوب، فكلمة "تلعب" في العرف العام، تحيل على اللهو وطلب المتعة وفي أحيانٍ كثيرة، تحيل على الاستهتار..

هذا الوجود هو وجود فارغ، فكلمة "تلعب" في العرف العام أيضاً، تحيل إلى ملءٌ فراغ من لا عمل له ولا دور، وتبديد ملل من لا شغل يستغرقه ولا انشغال..

بهذه ال"تلعب" ترى الجماعة الخارج. فالخارج لا يحمل مثل هدفها المقدّس المبارك ولا يملك مثل رسالتها العظيمة الشريفة، لهذا تراه (وفق حلم الوكيل الحارس) وجود تافه مستهتر

---

[65] أحد وكلاء الجماعة الخمسة أرسل لي هذا الحلم صبيحة أحد الأيام عقب حوار الكتروني معه كنت أثرته حول الطاعة مقابل الحرية. لم أحتفظ بنص الحلم الأصلي لذا كتبته بناء على ما حفره جيداً في ذاكرتي.
[66] انظر لسان العرب تحت الجذر سور.

يستمتع باللعب غير الشريف (غير المقدّس)، وكل ما يخرج عن السور فهو جزء من هذا الوجود الذي لا يُشَرِّف الأمر..

لعل هذا أيضاً يفسر العبارة التي قالها "وكيل آخر"[67] عنّي ذات مرة، والتي بقت محيّرة بالنسبة لي حينها. ففي محاضرة لأحد المفكرين الاسلاميين عام 2003، نظمها أحد المراكز الثقافية غير المتطبعة بالطابع الاسلامي، شهدت هذه الفعالية حضوراً مكثّفاً للجماعة، وكنت أقوم بتقديم المحاضر للجمهور بطلب من أمينة المركز، حين همس "الوكيل الآخر" في أذن أختي الكبرى[68]: كنت أتمنى أن أراها واقفة في غير هذا المكان..

لماذا بدا وقوفها في هذا المكان وقوفاً غير مشرف لأفق الجماعة؟ هل كانت قد " خرجت تلعب" بوقوفها في هذا المكان؟ أم لأن وقوفها جاء من الخارج ولم يأت بتنظيم من الداخل؟

لعب اللغة

بهذا الفهم، نعود مرة أخرى لحلم (الوكيل الحارس) لنفسر غضبه وخوفه على تلك الخارجة من أن يمسها سوء الخارج، كونها إبنة الداخل، كونها شرف الداخل.

لذا جاء توعّده بالويل للخارج السيء الذي تجرأ على مخالطة شرف الداخل، "الويل لمن يمسّها بسوء". الويل لما يمسّ هدوء سورها الداخلي، الويل لما يحرّك حصاتها القابعة في عمق البحيرة، الويل لما يخترق حصانة ذاتها المسوّرة، الويل لما يتهدّد لغة الحلم المتمكّنة من تلوينها بلون الجماعة ورغبتها وأمرها..

حُلُم (الوكيل الحارس) الذي أرسله لي بلغة أسماها "مشفقة"، وتلقيته بلغة "محذِّرة"، صور لي خطواتي التي تجاوزت حدود السور، دون أن تتجاوز جماعة السور حينها، بأنها لَعِبٌ خطيرٌ مع اللُّغَة..

لكن لم الخوف عليّ مما قد يصيبني من سوء اللغة؟

أليس حُلُم حارس السور لُغَةً كلّه؟!

أليس كلُّ ما في هذا "الأمر" هو حُلمٌ متجسّد في لُغَة، هو طاعةٌ مُمْتثلة إلى لُّغَة، هو غلافٌ يضبطنا في داخلِ لُغَة..

---

67 وكيل آخر من الوكلاء الخمسة.

68 الأخت الكبرى، الأخ الأكبر، مصطلح يطلق على القناة التي يتصل الفرد من خلالها بالجماعة بشكل مباشر ومتاح في أي وقت، وعن طريقه يتلقى الفرد التوصيات والأوامر، وعن طريقه ينقل آرائه ومقترحاته لباق الجماعة والوكلاء.

أليس "فعل الأمر" الذي شكّل هذه الجماعة هو لغة كُلّه، أليس يحضر الإمام في هذه الجماعة باللغة لا بالشخص، أليست الجماعة تستجيب لفعل اللغة وترى فيه استجابة لشخص الإمام، اليست لغة النصوص هي "الأمر" كلّه....

ألسنا نقدّس اللغة (الرؤيا، النص، الحلم) التي أوجدت الجماعة، أليست اللغة هي عقل الجماعة وروحها وخيالها، أليست هي فوق الجميع، أليست هي وساطة الجميع، أليست هي محرّضتنا وواقعنا وروحنا وعقلنا وعصبتنا، أليست هي يوم خلاصنا وتأويل رواياتنا، أليست هي تكسّرات زجاجنا وفخارنا، أليست هي إعدادنا الذي نتهيأ به للنصرة..

الجماعة طاعة مطلقة غائبة في اللغة، ف"ليس في هذا الأمر إلا الطاعة"، وليست في هذه الجماعة إلا اللغة المنجزة للطاعة..

وإذا كان وجودي داخل هذا التشكيل استجابة "للأمر" والأمر لغة، وإذا كنت إبنة شرعية للحلم والحلم لغة، وإذا بقيت طوال 16 عاماً من عمري محصنة بأسوار لغة الخلاص.. فلماذا يخشى عليّ "الوكيل الحارس" من لغة الخارج؟

وجود الجماعة

" الوجود هو علاقة أو حضور معاً خلاق يجمع بين الأنا والأنت"(69)

هل تلتقي الجماعة مع الخارج بدون سور؟ هل تسمح الجماعة للعلاقة بين (أنا الداخل) و(أنت الخارج) أن تذيب حائط السور الشريف؟ هل تسمح الجماعة إلى لغة الخارج أن تحضر في لغتها؟ هل ترى الجماعة الخارج غير لغة سوء، وحضور سوء، وعلاقة سوء، واجتماع سوء؟

الجماعة تخشى أن تؤكد نفسها من خلال الغير، فهي ليست كما يقول مارسل جبرييل "انني أؤكد نفسي كشخص بالقدر الذي أعتقد فعلاً وجود الغير، وبالقدر الذي به هذا الاعتقاد ينحو إلى تشكيل سلوكي" (70).

الجماعة تؤكد نفسها (شخصيتها وجدّها وشرفها وخصوصيتها) بالقدر الذي تعتزل فيه الغير، أو بالقدر الذي تختلط فيه بالغير دون أن تعتقد بوجوده فعلاً، ودون أن يؤثر وجوده على تشكيل سلوكها، ودون أن يلامس وجوده سطح غلافها، دون أن يقترب من سورها.

لذا كانت تمثّل الجماعة المخالطة دون أن تتمثلها (71)، فهي تمثّلها من أجل تجميل غلافها ومن أجل تزيين حافة سورها أمام الآخرين. لكن دون أن تعتقد بها (فعلاً)..

---

[69] عبد الرحمن البدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء2، ص414

[70] عبد الرحمن البدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء2، ص414

[71] راجع الجماعة والمخالطة والمزايلة في الحلقة 4

يخشى السور اختراق لغة الخارج للغة الداخل، يخشى أن يصير الاعتقاد بالغير (فعلاً) وجود آخر يهدّد وجود الداخل..

لكن، لا يمكن لأي جماعة أن تتمايز (فعلاً) عن آخر لا تعرفه (فعلاً)، ولا يمكن لها أن تعرف آخر لم تفتح أبواب سورها عليه (فعلاً).

لا يمكن لأي جماعة أن تكتسب وجودها (فعلاً) إلا من من خلال تجاربها، علاقاتها، حضورها، وجودها الذي يصلها بالغير، وصلتها بالغير هي بابها الذي يجعل منها غيراً، فالتمايز هو المغايرة، والمغايرة هي الغير متمايزا، والغير هو ما يُدهش الجماعات ويغيرها ويعاود خلق هويتها باستمرار.

لا يمكن لأي جماعة كانت أن تؤكد وجودها ما لم تشق سورها المغلق، ما لم تنفلت من ضيق فضائها الواحد وتخرج عن وحشته وسلطته واستحكامه واستبداده ووصايته، إلى رحاب المغايرة وأنسها وانفتاحها ومرونتها وسعتها.

لكن، لم يكن هذا الوجود حاضراً في تجربتي مع جماعة "الأمر"، فالاختلاط بالغير يمكن اختزاله في عبارة واحدة، أنه خروج لعب وسوء، هذه العبارة وحدها، كفيلة أن تغلّظ جدار السور بين الداخل والخارج.

بهذا الاختزال للخارج، تكفي الجماعة نفسها (سوء) أن يفكر أفرادها في الخروج، تكفي نفسها (سوء) الإجابة على سؤالات الداخل عن الخارج، تكفي نفسها (سوء) أن تقف في مكان غير مكان جماعتها " كنت أتمنى أن أراها واقفة في غير هذا المكان"..

وبهذا تسكن الجماعة في لغة واحدة ووجود واحد وسور واحد وعلاقة واحدة وحضور واحد.. تسكن في مكان واحد..

خطر الفضالة

حين نسكن في لغة الحلم وحده، تصير اللغة أسراًً، وفي الأسر سور، وفي السور سر، فتصير اللغة (سراً لسور) أو (سوراً لأسر)، تصير سوراً لجماعة أو سراً لحلم، تصير حافة سور تراقب، تصير حلماً يحذّر..

وحين نسكن في وجود واحد، تصير الجماعة الوجود الذي يفصلنا عن الوجودات الأخرى، يمنعنا من رؤيتها، فيصير سور الجماعة عالماً من الأسرار والمخاوف والتهددات والوجودات الأخرى الخطرة (اللعوبة المسيئة).

وحده السور، هو الوجود الفاضل، وحده الحلم والرغبة معاً، وحده عمق البحيرة المقدسة، وحده الخلاص.

أما الوجودات الأخرى فهي محض فضالة، "تحدِّد المجموعة نفسها حول مقوِّم مشترك – الرغبة– وتحدِّد من ثم كل من لا ينتمي لها، كفضالة"[72]. فما هي الفضالة؟

الفِضالة كل ما يزعج هدوء البحيرة العجيبة، وليس منها، كل ما لم يتسوّر بسور الجماعة، كل ما لا يشاركها الرغبة والتمثّلات والمشاعر والإرادات، كل ما يخرج عن ذهنيتها ومتخيلها المشترك، كل من يشكل بنطقه ولغته، تهديداً لنطقها الخاص وهويتها الخاصة ولغتها الخاصة.

الفضالة ما تهدّد باختلافها الصورة المثاليّة للجماعة الفاضلة. فهي باختلافها وغيريتها تعرّي الغلاف الضابط للجماعة، وتكشف لأفراد الجماعة أنهم تماثل لا اختلاف فيه، وتكشف لها أن ما تعتقده عن نفسها بأنها تمتلك ذاتاً حرّة وواعية ومريدة، هي ليست كذلك، بل هي ذات محكومة بتغليف يضبط حركتها كما يضبط تفكيرها، ويحجب عنها أن ترى السعة التي يتحرك فيها ظل الاختلاف.

"تشعر الجماعات بأنها مهدّدة نرجسيّاً عندما يخاطر بأن تظهر نقاط ضعفها التي تفضل إخفاءها عن نفسها، وعندما تشوَّه صورتها المثالية الخاصّة التي تعمل بعناد شديد للحفاظ عليها"[73].

تصير الفضالة خطراً يتهدد باختراق السور، فيسقط مخاوفه وكرهه عليها، لكي يخشاها أفراد الجماعة ويرفضوها، " جزء من الانتماء إلى مجموعة ما، هو إسقاط التخوفات والكره على أناس آخرين"[74]. السور يسبغ على الخارج نعوت السوء أو الاستهتار أو السقوط أو التردي أو الجهل أو الخطأ أو اللا معرفة، فيشكّل سوراً نفسياً آخر في داخل نفوس أفراد الجماعة، أشد إحكاماً من السور الخارجي، يمنع أفراد الجماعة من تلقي ما يأتي من خارج السور، ويجعلهم يتعاملون معه إما بحذر شديد، أو يمتنعون باختيارهم عن التعامل معه..

السور لا يصرِّح بمخاوفه ممن يعتبرهم فضالة، فالتصريح اعتراف بالخوف، والخوف اعتراف بالضعف، والجماعة لا تعترف بالضعف. لكنه يعمل على إكساب أفرادها جهاز مناعة داخلي، يرفض تلقائياً كل جسم غريب يقف قريباً من سور الجماعة.

الهروب الثامن
عُرف الجماعة وذائقتها

---

[72] انظر مايك كرانغ، الجغرافيا الثقافية
[73] المصدر السابق
[74] المصدر السابق

الهابيتوس (hapitus) عند بورديو، أو ما ترجمه البعض بالعرف أو الفطرة الاجتماعية[75]، يعبّر عن نظام المكتسبات والمسبَّقات التي يتحصلها الإنسان من المجتمع أو الفئة التي ينتمي إليها، وبهذه المكتسبات يستقبل العالم والمجتمع، ويباشر أفعاله وممارساته وسلوكياته على أرض الواقع.

هذه الفطرة – المكتسبة– تختلط بتكوين الفرد، ويكون تأصّلها فيه قوياً بالقدر الذي تبدو وكأنها فطرة طبيعيّة مرتبطة بأصل تكوينه، ولذا كان جهده في تحويلها أو تخليص وعيه منها، عمليّة توازي في صعوبتها تحوّل إلى شيء منافٍ آخر للفطرة الطبيعية.

يشكّل العرف وعي الأفراد لواقعهم ووجودهم، ويولِّد ممارساتهم الواعية وغير الواعية، وينتج قواعد أقوالهم وأفعالهم وآليات عملهم وتفكيرهم، وينظم أطرهم المرجعية التي تحدّد تقييمهم للأشياء، يصنّفها بين خير وشر، جيد ورديء، أصيل وزائف، حق وباطل، لعب وجِدّ، هدوء بحيرة وإزعاج حصاة، فاضل وفضالة.

فيكون الوعي المكتسب (أو العرف أو الفطرة الاجتماعية أو الهابيتوس)، مساحة من الإمكانيات المتاحة التي تتحرّك في داخلها الجماعة، وهو ما يجعل أفراد الفئة الواحدة، يتشابهون في مقولاتهم التي يقولون بها أنفسهم ووجودهم، ويتماثلون في ردود أفعالهم التي يرِدُون بها على أو مع أو بين المواقف المختلفة. "الاستعدادات المكتسبة تعمل على المستوى العملي كمقولات للإدراك والتقييم أو كمبادئ تصنيفية فضلاً عن كونها المبادئ المنظمة للفعل"[76].

فضاء الحلم

ينظر بورديو إلى المجتمع باعتباره فضاءً اجتماعياً يتشكّل من جملة حقول تتصل فيما بينها بقدر ما تستقل عن بعضها البعض. كل جماعة، باعتبارها حقلاً مجتمعياً، تشكّل مساحة من الإمكانيات المتاحة أمام أفرادها، يعودون إليها ويهتدون بها أو يشتغلون عليها فيما يتخذونه من خيارات أو ينجزونه من أعمال [77].

لكل جماعة مساحة من الإمكانيات تتوافق مع حلمها المشترك ورغبتها الصعبة. فأفراد الجماعة تهتدي بالرغبة، وتسترشد بالحلم وبهما تقرّر أو تتردّد، بهما تقدّم أو تحجم، تقبل أو ترفض، تحب أو تكره، تقرأ أو تحجم.

---

[75] شربل داغر، الفن والشرق، ص119-120

[76] علي حرب، أصنام النظرية وأطراف الحرية، ص37

[77] علي حرب، **أصنام النظرية وأطياف الحرية**، ص31

يتمايز الأفراد في داخل الجماعات بمقدار ما يتمثّلون هابيتوس جماعتهم، ويكونون فاعلين فيها بمقدار ما يديرون أمورهم ومواقفهم ومقولاتهم من خلال هذا الهابيتوس، بل أن أفرادها يثبّتون فعاليتهم في داخلها بقدر ما تكون هابيتوسيتهم منسجمة مع سر الجماعة، مع أفق رغبتها، مع أنظمة غلافها، ومع وعي سورها. ويكون فردها فاعلاً ومتمايزاً، بقدر ما يلعب داخل هذه المساحة الممكنة، دون أن يخرج عليها.

الهابيتوس إذن هي كتابة في وعي الأفراد، بقلم غير قابل للمحو، أو بشكل يصعب محوه وإزالة أثره، هي ترسُّبات تبقى في الوعي، ومسبَّقات تقبع في الذهن، وتشكُّلات تصنع في الإرادة، وتمثُّلات ترسم في الصورة، وإطار مرجعي يتحرّك في الخيال، ويحرّك في داخله الأفراد، باعتباره مرجعيّة عامة، يعد تجاوزها أو الخروج عليها خروج عن العرف، خروج عن الفطرة، خروج عن الحس النقي، خروج عن الذوق السليم.

لاقطات التذوق

" **وأما قضية مولانا صاحب الزمان فهي قضية أراك تركّز عليها كثيراً لمزاً أو همزاً، فاعلم أخي أننا ندّعي أنّنا معه، وهو مسدّدنا ، وهذا أمر لا رجعة لنا فيه، ومن ذاق عرف**"[78]

يوضح ماك ليود رئيس معهد التذوق الذي يجري أبحاثاً في هذا المجال منذ 40 عاماً، أنه في الشم والتذوق، تختلف لاقطات كل شخص عن الآخر، وبالتالي فإن الإحساس بالشم والتذوق إحساس فريد وخاص بكل فرد. [79]

التذوّق حاستنا إلى المعرفة، فالتذوّق حسّ، والمعرفة عقل لهذا الحسّ، نحن نعقل الأشياء ونقيم علاقتنا بها ونحكم عليها في ضوء ما تخبرنا حاستنا عنها. التذوق تجربة اختبارية، لا يمكن الحكم على الأشياء قبل تجربتها واختبارها، يقول ليود "طالما لم نتذوق الشيء لا نستطيع وصفه أو التعرف عليه من الوصف"[80]. لذا كان التذوّق فعل يسبق المعرفة المتمثلة في الوصف أو التقييم أو الحكم أو التصنيف.

ولأن لاقطات كل منا هي ما به يتذوّق، ولأنها تختلف من فرد لآخر، فإن تذوّق كل منا هو تجربة فرديّة، تنتج إحساساً خاصاً تجاه الأشياء، وتوّلد معرفة مختلفة لا تتشابه مع تذوّقات الآخرين. "التذوّق يصدر عن بشر مختلفين في تجاربهم، تولد عندهم إحساسات جمالية مختلفة"[81]. تجاربنا هي لاقطات تميّز أذواقنا وتجعلها غير متشابهة، لا يمكن أن تتماثل تذوقاتنا

---

78 من حوار مع رابحة الزيرة، علي أحمد الديري.
79 بانوراما، **كشف أسرار التذوق**.
80 بانوراما، **كشف أسرار التذوق**.
81 شربل داغر، **الفن والشرق**، ص59

إلا إذا تماثلت لاقطاتنا، إذا تطابقت حاستنا، إذا تماثلت رغبتنا، إذا صرنا فماً واحداً لا أفواه عدة، ذلك فقط هو ما يحيل التذوقات المتعددة إلى ذائقة واحدة.
ولأن الجماعة بشر متشابهين لا مختلفين، لأن الجماعة تجربة واحدة لا تجارب عدة، لأنها ذات واحدة لا ذوات عدة، لأنها فم واحد لا أفواه عدة، لذا فإن ذائقة الجماعة إحساس جمالي واحد، لا إحساسات جمالية مختلفة.

مذاق العُرف أو عُرف المذاق؟

العرف (الهابيتوس) باعتباره منظومة مولدة لمارسات الأفراد وسلوكاتهم، وباعتباره وعياً تكسبه المجتمعات/الجماعات لأفرادها، يوجه لاقطات الأفراد لتتعرف على ما كان معروفاً في وعيها الخاص وتستهجن ما كان غريباً أو مستقبحاً في ذلك العرف، "العرف هو مبدأ مولداً للأذواق والأساليب والممارسات والخبرات، بقدر ما هو مبدأ للرؤية والتقسيم أو للتصنيف والتقييم. ولذا فهو يشكل وجهة النظر الخاصة، المميَّزة والمميِّزة، التي يعاد بواسطتها إنتاج الخصائص الداخلية والعلائقية للحقل"[(82)].

يعمل هذا العرف على توحيد الأذواق مثلما يوحِّد ممارسات الأفراد وردود أفعالهم، ويعمل على توحيد لاقطاتهم مثلما يوحِّد حساسيتهم تجاه الأشياء.

عرف الجماعة تحكمه الرغبة، ويوجهه الحلم، ويضبطه الغلاف، ويحميه السور، لذلك فهو يجعل من الجماعة ذوقاً واحداً، وفماً واحداً، أو كما يصفها ديديه أنزيو "الجماعة فم"[(83)]. تستجيب الجماعة إلى لاقطات مشتركة توحد ذائقتها، توحِّد أفرادها في فم جماعي واحد، يجعل من الجماعة فماً أموميا –باعتبار الجماعة كياناً يشبه الأم بالنسبة لأفراده– يتذوق نوعاً واحداً من الطعام، هو حليب الأم فقط، يحمل حليب الأم الامتلاء لكل الأبناء، بالقدر الذي يشعر الأبناء –الأفراد– بالاكتفاء والشبع الذي يفقد ذائقتهم الرغبة في تذوق أي آخر غير غذاء الأم، ولا يعود أفراد الجماعة يجدون خارج هذا الغذاء ما يستفز ذائقتهم أو ما يستثير لاقطات حواسهم.

في داخل الجماعة كنا نردد بفم واحد "من ذاق عرف"، نرددها كلما داهمنا سؤال لا نملك له إجابة تمتلك القوة التي تقنع داخلنا أو تقنع الآخرين، نحيل الاجابة على ذائقتنا لتجيب نيابة عن عقولنا، نجعل الذائقة منطقنا الذي يجيب على منطق الآخرين، نجعلها حجتنا التي تفنّد حجج الآخرين، نجعلها دليلنا الذي يفسد براهين الآخرين، نجعلها يقيننا الذي يزيد من سكوننا في عمق البحيرة، نجعلها حاستنا التي بها نرى، فمن ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف.

---

[82] علي حرب، **أصنام النظرية وأطياف الحرية**، ص33
[83] ديديه أنزيو، **الجماعة واللاوعي**، ص99

"من ذاق عرف"[84]

إلا أن الذائقة لا يمكن لها أن تنضج وترتقي وتغتني ما لم تشترك في تجربة تتذوق من خلالها طعومات أخرى خارج غذاء الأم، فالطفل حتى في عامه الأول، بعد أن يبدأ يتذوق أصنافاً جديدة من الطعام، يصبح غير مكتف بحليب الأم، ويبدأ تجربته الخاصة في استطعام أشياء جديدة معه، يبدأ باختبار كل شيء يستثير لاقطات تذوقه التي لا تحكمها أي قاعدة أو نظام، فهو يقوم بعمليات مزج وخلط غير متجانسة وغير معقولة وغير مقبولة بالنسبة لذائقة الكبار، لكنها مرحة و لذيذة وممتعة بالنسبة له، فالتذوق بالنسبة للطفل هو الاستمتاع، والاستمتاع إدراك، والطفل يدرك بالتجربة لا بمسبّقاته التي يوجِّهه إليها عرفه أو هابيتوسه.

التذوّق خبرة متراكمة، تغتني بمقدار ما تتنوع، وتتنوع بمقدار ما توسّع من قدرة لاقطاتها على التقاط الطعوم المختلفة، بمقدار ما تمتزج بالغير وتدخل في تجارب جديدة تثري حاستها. فهي تمايز بين الطعومات حين تتذوّق المختلف منها، وتتعرف إليها حين تتعدّد نكهاتها في داخل فمها.

التذوّق بهذا يكون خبرة حيّة، مغامرة لديها شغف الاكتشاف والمعرفة، والتعرف على طعومات جديدة لم تكن ضمن مساحة إمكانيتها، هي خبرة توسّع أفق خياراتها بشكل مستمر، وتلعب خارج مساحة الإمكانيات التي يحصرها فيها هابيتوساتها، هي خبرة منفلتة من أسر القواعد والنظم اللاقطة، وكلما ذاقت أكثر شعرت بجهلها أكثر، وكلما جهلت أكثر شعرت بحاجتها للمعرفة أكثر، وكلما كان ذلك استثارتها ذائقتها للمزيد من التذوق والمزيد من المعرفة، وكلما ذاقت أكثر أيقنت أنها لم تذق بما يكفي لكي تحكم على أي ذائقة، لأنه لا قانون مطلق يحكم الذائقة، ولا مثال أعلى يقيس حساسية الذائقة، ولا نعرف من العالم إلا بقدر ما نتذوق من اختلافه.

نعم بهذا يكون من ذاق عرف، من ذاق الاختلاف عرف حلاوة الاكتشاف، عرف حلاوة أن يكون غير عارف، لأنه سيكون بحّاثة يتذوق العالم. الذائقة التي لم تذق سوى طعماً واحداً طيلة حياتها، هي ذائقة لا تعرف سوى ما يملأ فمها، لكنها لا ترى في خارج فمها أي طعم، هي تتذوق العالم من خلال فم واحد، وتعتقد بأن فم العالم هو فمها، تختزل العالم في مذاقها، وتعتقد

---

[84] رابحة الزيرة، **حوار مع رابحة الزيرة**.

بأن ذائقتها هي ما به تعرف كل الأذواق وتقيسها عليه، فمن ذاقها عرف ما لا يعرفه الآخرون، هذا ما تشير إليه ذائقة "رابحة الزيرة" حين تقول "فمن ذاق عرف".

إلا أن التذوق لا يمكن أن يكتفي بنفسه، تكون ذائقة تذوقاً حين تخبرنا عن غيرها، حين تكون اتصالاً بالغير قائماً على الدهشة، دهشة الطعم الذي لم تعتده حاسة تذوقنا، ودهشة الجديد الذي لا يفتأ يضيف نفسه إلى ذائقتنا يوماً بعد يوم. التذوق باب مفتوح على الغير، يتمايز بالمغايرة، لكن الجماعة فم ممتلئ بما فيه، يجتر ذائقته، ليختزل العالم فيها.

الهروب التاسع

عندما صرتُ "فَدَكاً" محرّرة بسلطة القَسَم..

تفتح وعيي في النصف الثاني من الثمانينيات على حدث الثورة الإسلامية في إيران، وكغيري من أبناء جيلي صاغتنا الثورة نحو أفق تحقيق حلم الدولة الإسلامية. رأيت في الجمهورية الإسلامية أنموذجا ربانياً فاضلاً ومباركاً. صارت هذه الرؤية مرجعاً وفقه بدأت أتحرك نحو رسم تصور أفهم من خلاله العلاقة بين الله والعالم والإنسان والدين، وأنشد تحديد هوية لي خاصة أستطيع من خلالها أن أوطّد هذه العلاقة.

قبل الدخول

كنت في بداية سنواتي الجامعية حين تعرفت إلى فتاة، ستصبح أختاً كبرى لي فيما بعد. شخصية بها شيء من الغموض المثير لفضولي المتقد حينها بحلم الثورة والتغيير. متدينة جريئة واثقة خفيفة الحركة، تحمل طرحاً مغايراً (صرّحت به بعد أن اطمأنت لي وتوطدت علاقتها بي). ملامح هذا الطرح يمكن اختصارها في أن الزمن الذي نعيش فيه هو زمن خروج الإمام المهدي. والإمام المهدي يعمل الآن على تهيئة الأرض لظهوره من خلال اتصاله بخاصة أوليائه. انتصار الثورة الاسلامية في إيران جاء بتسديد مباشر من الإمام المهدي. إيران هي الدولة الممهّدة الأولى للخروج. السيد الخميني هو النائب الخاص الذي سيقوم بتسليّم الراية (الدولة) ليد الإمام صاحب

الزمان. يتلقى السيد أوامره بشكل خاص ومباشر من الإمام المهدي ومن خلالها يدير الجمهورية الاسلامية في إيران. لا يتحرك السيد خطوة واحدة مالم تكن مسدّدة من قبل الامام.

بدأت هذه الاطروحة تثير فضولي، وقبولي أيضاً، خاصة في ضوء ما كانت تقدمه لي من أحداث ومواقف وأقوال تبرهنها بها وتدلل عليها، كانت تُرجع بعض هذه المصادر إلى ثقات تنقل لها تفاصيل من الجمهورية الاسلامية في إيران، وقد عزز من قناعتي بخطابها، أنها كانت فارسية الأصل.

أثارني هذا الطرح لأنه يحمل إشارة إلى قرب خلاص العالم من الظلم والشرور، وأثارني هذا الغموض لكونه يوحي بسر عظيم، وأثارتني أيضاً هذه الشخصية لكونها نموذجاً ناشطاً مختلفاً عن النموذج التقليدي للمرأة المتدينة في البحرين، أعني النموذج الذي كانت تعزل المرأة فيه نفسها وحضورها وحركتها عن الاختلاط بالرجل وترى في ذلك درءاً للفتنة والشيطان.

في ثلاثة أشهر، توطدت العلاقة بيننا بشكل سريع وملفت، كنا نجلس بالساعات نتحدث عن خصوصية الحركة الاسلامية في إيران وتسديداتها، نقابلها بالحركة الاسلامية في البحرين. ندخل على حركة المرأة ونشاطها ولبسها هناك، نقابله بوضع المرأة هنا. كانت جلساتنا شبه يومية وتطول لساعات. كانت أعيننا شاخصة هناك، هناك حيث النموذج، وهنا حيث حركة تَشوّفٍ نحو هذا النموذج.

فدك الأمر

صرنا متقاربتين جداً في الأفكار وتبادلنا الثقة، شعرت أنها الأقرب لي من بين كل علاقاتي وصداقاتي، فقهت منذ البداية أن وراء هذه العلاقة سرّاً، كانت تهيِّئ أن تكشفه لي ذات يوم. وعندما حان ذلك اليوم.. قالت لي بعد فترة صمت قصيرة: لو دعاك الإمام المهدي لتكوني في حركة يقودها هو بنفسه، ماذا سيكون جوابك؟

بعد صدمة ما أزال أذكر دهشتها، قلت: من؟ أنا؟!. قالت: نعم أنت..

أجبت بالصدمة نفسها، وبالدهشة نفسها، لكن دون أي تردد: ومن أنا حتى أرفض مثل هذه الدعوة؟ ذلك شرف لمثلي..

سألتها بلهفة عن طبيعة هذه الحركة وتفاصيلها، فأوضحت أنه لا يمكنها إجابتي على كل أسئلتي، ولا يمكنها إخباري إلا بما هو مسموح به، فالحركة سر عظيم من أسرار المولى، وحفظه واجب مقدّس، **ولا يُعطى أحدنا بقدر ما يسأل، بل بقدر ما يجب أن يُعطى.**

لكنها أكّدت لي أن الحركة هنا على اتصال مباشرة بالحركة الأم في الجمهورية الإسلامية في إيران، وأنها تسير على منوالها، باعتبارها مكمّلة لحركة الإمام الساعية نحو تمهيد

الأرض للخروج. هذه الحركة موعودة بتحرير البحرين (فَدَك الثانية) [85]، على غرار تحرير إيران (فَدَك الأولى). فدك الأولى عادت إلى يد الإمام بعد انتصار الثورة الاسلامية المباركة التي سددها بنفسه. هناك حركات مشابهة في مناطق مختلفة من بلدان العالم، تتصل ببعضها وفق خطة عامة يضعها الإمام، ويقود بناء عليها.

ادهشني ذلك التخطيط العالمي، وعلى الفور قبلت بلا تردد.. ولكن كي أدخل باب الجماعة.. كان لا بد من "القسم".. أعطتني ورقة صغيرة كتب عليها القسم بخط صغير جداً، وقالت: اقرئي هذا القسم واحفظيه عن ظهر قلب.. قرأت القسم..

"**أقسم بالله جهد أيماني، أن الطاعة والولاء لكم، وأن لا أحول ولا أميل ميل الانحراف عنكم، وأن لا أشكو ألماً في رضاكم، وأن أرفع كل صغيرة وكبيرة إلى مقامكم، وان أسعى لتحقيق فدكٍ الصغرى مادمت حياً، ولفدكٍ الكبرى مادمت فيكم عمراً، والله على ما أقول شهيد**"(**86**).

حفظته عن ظهر قلب .. وبمجرد أن نطقت القسم؛ وضعت أولى خطواتي نحو التشكيل..هكذا دخلت بقسمي باب الجماعة..

فك التغليف

لكن، لماذا أخرج إلى القسم هنا، في نهاية قراءتي المختصرة للتجربة؟ لماذا لم أفتتح قراءتي به كما افتتحت به باب الدخول؟

لأني تعمدت أن يكون القسم الذي تبدأ به الذات، أولى خطواتها الواعية نحو التغليف، هو آخر ما تختتم به ذاتي، بوعي آخر، فكّ هذا التغليف.

فكيف كان فعل القسم في وعيي ولا وعيي في هذه التجربة؟

القسم هو الباب الذي يفتح الفرد إلى داخل الجماعة، ما إن ينطق الفرد قسم الجماعة، حتى يقرّر أن يمحو فرده ويصير جماعةً. يقرّر أن يسكن مخيال الجماعة، أن يقدّس حلمها، أن يلبس غلافها، أن ينطق لغتها، أن يتسوّر بسرِّها وسورها، أن يخرج من ذاته ليقهرها في في كل هؤلاء، ليصير هو هي..

---

85 فدك في الاعتقاد الشيعي هي أرض مغتصبة من إرث الرسول. ينقل الموروث الشيعي أن الامام المهدي سيقوم باستعادتها في آخر الزمان. يقود الإمام المهدي العالم نحو الخلاص المثالي. لذا فكل بقعة يسدِّد الإمام حركة خلاصها – وفق طرح الجماعة– تصير فدكاً محررة من الاغتصاب، يستعيدها الإمام مرة أخرى.

86 القسم الذي يلقيه الفرد للدخول في الأمر، وهو يلقى عليه ويردده هو، ثم يحفظه عن ظهر قلب، ولا يجوز له الاحتفاظ به مكتوباً.

القسم هو الشهادة التي يسجّلها الفرد على نفسه ليبقى أسيرها، أسير عدم مخالفتها، أسير طاعتها، أسير عدم التميز عنها، أسير عدم الاستقلال عنها، أسير عدم التحول عنها، أسير عدم الميل عنها، أسير البقاء فيها، أسير أن لا يشهد غيرها، أسير أن لا يرى إلاَ من خلالها، أسير أن لا يسير إلا في ممرها المخلّص..القسم حدّ وحصن.. حد لأنه يفصلك عما هو قبل ويميزك عما هو غير ويقطع بك عما هو خارج الجماعة، وحصن لأنه ملاذك الذي تحتمي به حين يُزلزل بك الخارج.

القسم فعل كلامي، يوصل الفرد بالرغبة المستحيلة ويجعل من الحلم عالمه وخياله, القسم يجعل الفرد موضع اعتراف وقبول في داخل الجماعة، ويحمّله أمانة حفظ سرّ جامع الجماعة، القسم ميلاد عرف الجماعة في الفرد. القسم أولى الخطوات نحو التخلص من إزعاجات السطح، للاستقرار في عمق البحيرة.

إذا كان فعل (الأمر) في نصوص "فأعدّوا للخروج إعدادكم للمحافل"، "فلا تعلوا عليّ وتأتوني طائعين"، هو فعل كلامي يتزعّم الجماعة بما يملك من نسبته إلى سلطة مقدسة توجب الفعل وتلزم به وتؤثم تاركيه[87]، فإن القسم هو فعل كلامي آخر، تنبع سلطته وقوته من صدوره من الذات هذه المرة، الذات حين توجب على نفسها الفعل وتلزم نفسها به.

بهذا يكون القسم أولى خطوات التغليف التي تمارسها الذات على نفسها بكل جهد أَيْمانها، وذلك بأن تطيع مطلقاً، أن توالي مطلقاً، أن لا تحول أبداً، أن لا تميل أبداًَ، أن ترفع دوماً، أن لا تكون لها خصوصية صغيرة أو كبيرة أبداً، أن تبقى في معيّة الزعيم دوماً. وهي بنطق هذا القسم تمارس فعل القهر الأول الذي يهيئها لولوج السور المقدّس، فلا ولوج لداخل السور المقدّس إلا بالقهر.

سُلطة بجهد الأيمان

السلطة كما يجري تعريفها هي القدرة التي يملكها فرد أو جماعة من الناس، والتي تمارس لإخضاع أفراد آخرين أو جماعات أخرى لأداء أعمال معينة. تمتاز السلطة بالنفوذ، كونها تقوم على إمكان العقوبة. [88]

تكمن خطورة "القسم" في كونه يمثل سلطة زعامة قادرة على النفوذ إلى حياة الفرد. وحده القسم قادر على توجيه سلوكيات الفرد وممارساته، قادر على تبرير تمثّله الغلافي، قادر على تحرير قهره الداخلي. فكيف يكون ذلك؟

---

[87] راجع "زعامة فعل الأمر" في الحلقة الثالثة.
[88] معجم المصطلحات الفلسفية، ص 93

خطورة هذا القسم تكمن من جانب آخر في كونه إقراراً موجباً غير قابل للتراجع وإلا سقطت الذات من عين نفسها. الذات تعدّ التراجع تكسُّراً يُشبه تكسّر الفخار الذي لا يعود كما كان. التراجع يجعلها ترى إلى نفسها على أنها قد جرى احتناكها من قبل الشيطان، أنها صارت (كُلاًّ) على الإمام و(كَلاًّ)، أنها ليست أهلاً لما حمّلت من عظيم الأمانة، أنها صارت تسير جرياً إلى الوراء بعد أن كانت تسير جرياً إلى الأمام، "كل من جرى عنه هو إلى الوراء قد أُخذ، وكل من جرى إليه هو إلى الحياة قد رُفع". بهذا ترى الذات نفسها إما أن تتمثل القسم أو تقع في السقوط المميت.

يدخل قسم الجماعة من خلال وعي الأفراد حين ينطقون به، ليسكن عمق لا وعيهم، حين يصبحون ملزمين بالالتزام بتفاصيله، فيحيلهم سكوناً في بحيرته.. القسم منطوق ثابت وسلوك ثابت وحركة ثابتة واستجابة ثابتة وفكر ثابت وإنسان ثابت..

يحصّن القسم أفراد الجماعة طوعاً مطلقاً بين يديه (أن الطاعة والولاء لكم). يحيل القسم حلم الجماعة إلى غلاف يفصل العالم إلى داخل وخارج، فاضل وفضالة. يخضع القسم الرغبة إلى استحالات حياة تقابلها استحالات موت (أن لا أحول ولا أميل ميل الانحراف عنكم). يحيل القسم الفرد إلى "شيء" ليس له من أمره شيء صغير، فالأمر كله بيد "الأمر" الكبير (أن أرفع كل صغيرة وكبيرة) [89]. يمسك "القسم" عن الفرد كل شيء، يحيط بكل شيء، يحيل بينه وبين كل شيء، ولا يمسك الفرد من نفسه أي شيء، ولا يحيط ولا يحيل. بهذا يكون القسم حدّ وحصن..

بنطقي لهذا القسم، تأهلت ذاتي لتعلن (سراً) خطوتها الأخيرة خارج الغلاف "المخالط المرن"، ولتبدأ (سراً) خطوتها الأولى داخل الغلاف " المزايل غير المرن".

بهذا أيضاً بدأت سؤالاتي تسكن في الطاعة فبها ترفع كل صغيرة وكبيرة أو تصمت، وبها تحول أو تميل، وبها تخالط أو تزايل، وبها تضلّ أو تفاضل، وبها تتغلف أو تفتح، وبها تسمع أو تصمّ، وبها تَقبَل أو تنكر، وبها تُقبِل أو تدبر..

بعد أن عرفت

كل ذلك حدث وأنا لا أعرف حلقة تصلني بالجماعة غير أختي الكبرى.. ولا أعرف عن تشكيل الجماعة سوى كونها امتدادا متصلاً بالجمهورية الإسلامية في إيران..

---

[89] الرفع من المبادئ الهامة لدى الجماعة. كنا نقضي جزء كبير من وقت الجلسات الثنائية الخاصة في رفع التفاصيل الصغيرة التي نخشى أن يكون لإغفالها أثراً في في حياة أحدنا ومن ثم انعكاسها على الجماعة. الرفع كان يرينا مدى خلوص الفرد وتسليمه للجماعة، فالفرد الذي (كُلَّهُ) للإمام يقوم برفع كل صغيرة وكبيرة حتى الخاص منها للجماعة.

لم أكن أعرف شيئاً عما كان يدور داخل السجن[90] من بدايات التشكيل. لم أكن أعرف أن الحركة بدأت من هنا، من سجون (فدك الثانية)، وأنها ليست امتداداً متصلاً بهناك، بانتصار (فدك الأولى).

لم أكن أعرف من شخوص الجماعة إلا أختي الكبرى، التي وصلتني بفدك الكبرى كأصل، وأخبرتني عن تخطيط عالمي يدار في فضاء محيطه العالم، لكنها لم تصل بيني وبين أصل الحركة في فدك الصغرى هنا، حيث السجن يضيق، ويتسع الحلم.

دخلت الجماعة وكل ما كنت أعرفه حينها، أن خاصة هنا يحملون مهمة عظيمة، لا يسمح لي أمنياً بمعرفتهم، هم خط اتصالنا بالإمام وبإيران وبكل الحركات المشابهة في العالم. وكان ذلك كل ما هو متاح لي معرفته من سر ليس بالقليل.

حين بدأت الحركة بالخروج إلى المجتمع، وبدأت تنتشر بين الناس وتعرف، وبدأت حركة المجتمع في محاربتها، كان الحلم قد تمكن مني، كانت الجماعة قد صارت عالمي ويقيني وقيامي وقعودي وجبهتي وحركتي ومعرفتي وحربي وسلمي وحبي وكرهي ومنطوقي وسمعي وبصري وحاستي وو..

صرت فدكاً محررة بالحلم.. صرت داخلا ليس فيه خارج، صرت بحيرة ليست تزعجها حصاة، صرت غلافا داخل غلاف داخل غلاف..

أما الخارج فهو جهل كلُّه، أو نسناس كلُّه، أو لعب كلُّه، أو ضلال كلُّه، أو فتنة كلُّه، أوفضالة.. كان الخارج حينها بالنسبة لي عزلا لا يحضرني منه شيء، ولا يدخلني منه إلا بمقدار ما يمرره الغلاف إما ليفنده، أو ليغلّظ به إحكامه علي..

الهروب العاشر

التفاتات الفراشة.. بين المحو وتقليب الكتابة

لعل أصعب ما يواجهني الآن، حيث أنا في أفق كتابة جانب من تجربتي، أو شذرات من أفقي داخل الجماعة، هو اضطراري أن أكتب شيئاً عن ذاتي. تلك الصعوبة مردّها إلى أن تلك الذات، التي قضت 16 عاماً في الحلم، بقيت ذاتاً جماعية لا مكان للفرادة فيها.

---

90 إشارة إلى بدء تشكيل الجماعة بين أتون السجن، وهي حكاية قائمة بذاتها وخاضعة لأقاويل كثيرة وجدل كبير لم أعشه، لذا لا أستطيع تناولها هنا.

الحلم، هو الذات الجماعية التي أعي نفسي من خلالها، ومن خلال هذا الوعي، كانت ذاتي تمارس ظهورها وخفاءها وتسترها وتقيتها وتسللها وتسربها ومناورتها، ومن خلاله، كانت ذاتي تنتج يقينياتها وشكوكها وأوهامها وتمثلاتها ورغباتها وخَلاصاتها، وفي داخل "الأمر"، كانت ذاتي تعيش حلمها واكتفاءها وإشباعها وخصوصيتها وأسرارها، وغلافها.

لم تقبض ذاتي الفردية على نفسها إلا مؤخراً، بعد أن خرجت عن الجماعة. القبض هنا ليس بمعنى الإمساك أو الامتلاك، فالذات حين تمتلك أو يُمسك بها تصبح ذاتاً مقهورة، لا إرادة ولا شعور خاص لها، لكنني أعني بالقبض هنا، هو إدراكي مؤخراً، بأن لي ذاتٍ خاصة تختلف عن تلك المذابة في الجماعة.

هذا الإدراك المتأخّر، جعلني حديثة العهد بذاتي التي للتو بدأت أتعرفها، بعد أن بقيت أمارس عليها – ذاتياً– مجموعة من أفعال القهر والتخميد والتبكيت والقمع والمنع والحصر، خوفاً من أن تتقوى أو تتجبر أو تتكبر أو تتعالى أو تتمادى أو تحاول أن تبرز ككيان خاص يخدش في أصل إخلاصها وتسليمها للحلم.

فراشة في مهب جماعة

محاولة قبضي على ذاتي الخاصة بعد كل هذه السنوات ليس أمراً سهلاً، فكأني أقبض على شيء غريب عني، رغم التصاقه بي، وكأن جداراً عازلاً، أو غلافاً، قد فصلني عنها بالقدر الذي جعلني أجهلها. وكتابتي عن هذه الذات، بالذات، أكثر صعوبة من القبض عليها، لأنها لم تكن كياناً معترفاً به عندي إلا بمقدار ما هي موصولة بالجماعة، ولم أتعود أن أجعلها يوماً مكان تأمل لدي، بل لم أكن لأستحبب أن تشغلني مجرد ذات نكرة (هي ذاتي) عن ذات معرّفة بالحلم (هي ذات الجماعة).

الأمانة الكبيرة، المسيرة الفاضلة، الرسالة الإلهية، الغاية العظمى: كلّها شعارات مثالية تشربتها ذاتي الصغرى، التي ذابت في المهمة العظمى، وتماهت في الرغبة نحو الأدوار الكبرى، وحجبت نفسها عن أن ترى أي شيء آخر يستحق أن يحيا الإنسان من أجله. انشغلَت هذه الذات بعناوين الموضوعات الكبرى، عن أن ترى في العناوين الصغيرة هنا وهناك، شيئاً يستحق الوقوف والتأمل والتقدير. صارت ذاتي ترى قيمتها من خلال الأعمال التي تقرّبها من الحلم، ولا قيمة للأعمال إلا بمقدار ما هي طريق نافذ إلى الحلم.

ذاتي الفردية، التي تعتقد الآن أن كل شيء مهما صغر في الحياة، هو ذو قيمة عظيمة تستحق أن تُقرأ وتُقال، ما زالت تجاهد من أجل أن تغير ما ترسَّب في ذاتي الجماعية من

مسبَّقات متأصلة، ما زالت لا ترى خارج الغايات العظيمة، الرغبات الصعبة، الأحلام الكبرى، شيئاً يستحق أن يقال.

وتجربتي الفردية، حسبما تقول ذاتي الجماعية السابقة، ليست سوى شيء صغير وشخصي ونسبي واستثنائي. ليست التجربة تستحق أن تروى أو تكتب أو تقال، إلا بقدر ما تكون مسيرة فاضلة، أو تصب في غاية عظمى، أو تحمل رسالة خالدة، ولأن تجربتي ليست أي مما ذكر، فإن ترسباتي المتأصلة التي مازلت أجاهدها، مازالت تجد حرجاً في أن تكتب تجربة، ليست يمكن تصنيفها سوى فراشة في مهب جماعة.

موضوعية الذات

الذات ليست كياناً مادياً مكوّناً من جسد وحواس يمكن أن يُمسك به، كما إنها ليست عقلاً مجرداً خالياً من المشاعر والأحاسيس، يمكن تحريره من ماديته. الذّات مزج بين روحٍ وحواسٍ، عقلٍ وجسدٍ. الذّات هي مجموعة النّسب والإضافات والعلاقات التي يقيمها الإنسان مع الأشياء ليفهم من خلالها نفسه والآخر والعالم.

حين أقول بدأت ذاتي تتحرر بعد خروجي من الجماعة، أعني أنها بدأت تقيم علاقات جديدة مفتوحة، مع كل ما لم يكن يسمح به قهري المتجسد في الرغبة والحلم، بدأت تتخلّص من أحادية أطروحتها المقدّسة، فصارت تفتقر إلى إضافات الخارج الكثيرة، بدأت تقيم علاقات جديدة معه بعد أن كانت مكتفية بالحلم فقط. هذه الذات صارت تجد ثراءها بقدر ما تنوع في هذه العلاقات، وتغتني بقدر ما تكاثر من هذه الإضافات وتنتسب لها.

أن تتحرر ذاتي، يعني أن تصير ذاتاً موضوعية في ذاتيتها، لا ذاتاً موضوعة في غلاف جماعة. فالموضوعية ليست نقيض الذاتية كما يُعتقد، الموضوعية هي الذات منتسبة إلى الذوات المختلفة والمتناقضة والمتعددة. هي الذات مفتقرة للآخر.

الموضوعية ذوات متعددة تقول الموضوع واحد، والجماعة هي ذات واحدة تسكن موضوعات عدة.

الجماعة انكار للذات، لذلك يتحرك العالم وتبقى الجماعات واقفة. يقول باولو فراي "إن إنكار أهمّية الذاتيّة في عملية تغيير العالم والتاريخ هو ضرب من السّذاجة والسطحيّة وهو كالاعتراف بالمستحيل أو كالاعتراف بعالم من غير رجال، فالعالم والرجال يتفاعلان معا ولا يمكن أن ينفصلا"[91].

---

[91] باولو فراي، **تعليم المقهورين**، http:www.josor.net

التفاتة الفراشة

الذات تراكم من الخبرات والتجارب، ولا يمكن أن نفصل بين التجربة وتكوين الذات، ولا يمكن للذات أن تخرج عن تشكّلاتها التي صاغتها تجاربها بمجرد أن تفك وصلها (المعرفي) بها. لا يمكن تجاهل أثر حركة جناح الفراشة الفيزيائية، في تكوين ذات الإنسان، فالإنسان ممتلئ بتجاربه.

ليست التجربة تنتهي بمغادرتها، بل تبقى في كل منا التفاتة تبقيه على اتصال من نوع آخر.

هناك التفاتة أشبه بالإعراض، وهي التفاتة تحمل ردّة فعل عنيفة، تحمل ندماً أو حقداً أو كرها أو شحناً أو عداء أو استحقاراً أو استهجاناً بالتجربة.

وهناك التفاتة تحمل حنيناً، خروجاً جسدياً من التجربة، وحنين إلى ماضيها. يقول فرويد "الإنسان غادر الغابة لكنه ظل يلتفت إليها بحنين" [92]، قد يغادر الغابة جسد الانسان، وتبقى آليات عملها تعمل فيه، يبقى في نظام يشبه نظام الغابة، ويبقى محاطاً بسياج يشبه سياج الغابة، فيصنع غابة خاصة به تشبه الغابة التي خرج منها.

الخروج هنا يصبح صورياً والوجود معنوياً، فهو خروج على جسد الغابة، لكن ليس على معنى الغابة. ومثل هذا الخروج لا يقول جديداً سوى جسد يغادر غابة ليدخل غابة أخرى.

أما الالتفاتة الثالثة وهي ما أسميه بالتفاتة الفراشة، فهي التفاتة ممتلئة، تعطي للتجربة معنى وحياة، وتجعلها تاريخاً غنياً تُثرى به الذات التي تغادر التجربة، دون أن تغادرها التجربة، لا حنيناً لها، بل ثراءً يكبر بالذات مع كل التفاتة.

تتفاعل التجربة مع كل ما تكتشفه الذات من جديد، مع كل ما تضاف إليه، وتتضج بمقدار ما تحمل بجديدها على قديمها، وبمقدار ما تعيد قراءة قديمها بأدوات جديدة المرة تلو المرة.

تمارس الذات هذه القراءة لا من أجل أن تقصي ماضيها أو تنفي تجربتها أو تسخر منها أو تزدريها، بل من أجل أن تحول علاقتها بها، فتتحول بها. هكذا تتكاثر الفراشة بالتجربة وتصبح حركتها ثراء وغنىً..

عندما شعرت

عندما شعرتُ بذاتي تتحرّر للمرة الأولى، شعرت، وللمرة الأولى أيضاً، أن ذاتي أصبحت شيئاً فريداً غير قابل للتماثل والتطابق، وغير قابل للاستبدال. شعرت للمرة الأولى أني أحب ذاتي

92

ولا أخشاها كما كنت في السابق، وأن ذاتي تستحق أن أتعامل معها باحترام من أثق بفطنته وقدرته على توسيع أفقه، عبر فهم العالم، بدلاً من التضييق عليها، خوفاً عليها من الضياع في العالم.

وهكذا كلما التفت للوراء، حضرتني التجربة، وقرأت من جديد نفسي، بطعم مختلف، بحقيقة مختلفة، بعمق مختلف، فلا أعود بوجهي للأمام إلا وقد حملت معاني أعيد فيها قراءة نفسي من جديد. وليست أي التفاتة تشبه الالتفاتة الأخرى، ففي كل التفاتة سيل مختلف من الصور والمشاهد والأصوات والأفكار والتطلعات، وفي كل عودة سيل مختلف من الرؤى والقراءات والتأويلات والإدراكات والتكاثرات والإثراءات.

"إن النار التي في الفتيلة، لا تلبث فيها طرفة عين، وإن ما يرى منها في كل وقت غير ما رئي في الذي قبله"[93].

التجربة فتيلة، لأنها تضيء الذات، تملؤها بضوء التجربة، ولأنها لا تلبث طرفة عين، ولو لبثت لحظة، لانطفأت، وخمد أثرها، وغاب ضوؤها، لكنها تنير بقدر ما تقول في كل التفاتة غير ما قالته في الالتفاتة التي سبقتها.

حقيقة الحقيقة..

كلما داهمتني حيرة شعرت بأني للتو بدأت أتحرّر، ذاتي التي كانت ترى إلى الحيرة شيئاً مقلقاً ومربكاً، لم تعد تطلب جواباً شافياً ولو آنياً على حيرتها، بل أصبحت الحيرة جزءاً من تحرّرها. حيرتي أصبحت تفتّق جهلي المركَّب، تركِّب ذاتي الجديدة، تعرِّي أوهامي المستبدّة، تقهر قهري المقدّس، تحطِّم جموديّ المغلَّف، تبدِّد يقيني المطلق.

حيرتي أصبحت شيئاً يستعصي على الجواب ولا يستعصي على الفهم، أصبحت تتمكن مني بعد أن كنت سريعاً ما أتمكن منها بجواب محكم في ذاكرة غلافي. حيرتي أصبحت تدب فيَّ كحقيقة، "الحيرة حقيقة الحقيقة" [94]. الحقيقة هي ما تتحرّر به الذات من أسر الحقيقة المعشوقة، والمنجذب إليها، والمهيمن بها، المتيقن منها، المتفاضل بها، لتطلقها نحو فضاء الحقائق الأخرى.

هكذا بدأت أرى إلى الحيرة حركة ذهنية تحرّر ذاتي بعد أن كانت كابوساً ذهنياً رهيباً، صارت ذاتي طفلا في بدء تعلمه الكتابة، محوه أصل وكتابته استثناء، يمحو ما يكتبه مرات ومرات قبل أن يسطره بقلم قابل للمحو، أوراق كتابته مسودة من بياض المحو، وبقدر ما يمحو فهو يتعلم.

---

93 إبراهيم بن سيار النظام، أحد أئمة المعتزلة.

94 ابن عربي، التجلّيات، ص135

صار المحو يحيي كل ما لبد في ذاكرة الذات، ليعيد له/لها الحياة، يحفزه/ها للنطق، يحفزه/ها للسؤال، ينشط خلاياه/ها الخاملة، صارت ذاتي تمحو ذات جماعتها، لتثبت ذات مفردها بعد أن كانت تمحو مفردها لتثبت جماعتها، صارت تمحو داخلها (حقيقتها الواحدة، مطلقها الثابت، يقينها القطعي، قدسها الرمزي، حكمها المسبق، حلمها الأوحد، رغبتها المنجذب لها...) لتثبت خارجها (كل الإنسان، كل العالم)، صارت تمحو غلافاً لترسم فضاء، تمحو حلماً لترسم عالماً بلا دروب..

المحو وتقليب الكتابة..

المحو في التجربة ليس إلغاء، ليس في تجربة الفراشة شيئاً يمكن إلغاؤه، الإلغاء تحوّل من وجود إلى عدم، العدم خصام وفراق وحرب وسخط واحتقار وازدراء. بينما المحو تحوّل من وجود إلى وجود، من ذات مذابة إلى ذات مختلطة، من يقين مطلق إلى فضاء مفتوح، من حقيقة مقدّسة إلى حقائق مضافة، من وجود يخشى الوجودات الأخرى إلى وجود يثرى بالوجودات الأخرى، من وجود يلغي الوجودات الأخرى إلى وجود يتصادق معها، وجود يكون معها وجوداً جديداً "فبالوجود نتصادق وبالعدم نتفارق"[95].

هذا المحو يجعل الذات كلما همّت بإعادة الكتابة، اهتمّت بأن تجوِّد الكتابة، أن تتمكّن من الفكرة، أن تقلِّبها في صفحات ذاتها وفي ذوات الآخرين، أن تقلّب ورقتها "كلما انقلبت الورقة انقلبت الكتابة"[96] ، أن تتوسع في حقيقتها، أن تحرر عبارتها وتحرر ذاتها، أن تضيف إليها ما به تكون كتابتها كشفاً جديداً، أن تكشف بالكتابة منطقة وجود جديدة لم تكن معروفة في وجودها، في حلمها، في واقعها، في جماعتها، ولم تكن معروفة داخل غلافها، ف"التفكير هو اكتشاف منطقة للوجود جديدة"[97]. والاكتشاف لا يكون إلا بإقامة علاقات جديدة بالذات والآخر بطريقة حرة ومفتوحة ومتقلبة وقابلة للمحو التغيير والتعديل والتحويل دون الإلغاء.

أرض بلا دروب

---

[95] أبوحيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، الليلة الرابعة عشرة.
[96] ابن عربي، **الفتوحات المكية**، ج
[97] ديكارت

بهذا تحوّلت علاقتي بالحقيقة والإنسان والعالم والآخر وصارت فضاء مفتوحاً، "باسم الحقيقة انتهى أحدهم مصلوباً، لكنه قبل أن يموت ترك لنا تعريفاً عظيماً للحقيقة، فالحقيقة ليست ما يمنحنا يقينا، ليست ما يمنحنا عمقاً، ليست ما يجعلنا أفضل من الآخرين، ليست ما يبقينا في سجن الأحكام المسبقة، الحقيقة هي التي تحررنا "[98].

كل حقيقة تكتب تكشف وجهاً وتخفي وجهاً آخر، وكل حقيقة تُمحى تفتح أفقاً لحقيقة أوسع، تفتح مساحة جديدة لكتابة جديدة، وحدها سلسلة المحو وإعادة الكتابة تتيح لنا أن نعدِّد وجوه الحقيقة وأن نكاثر تعريفاتها، أن نراكم الخبرة على الخبرة، والمعرفة على المعرفة، والحقيقة على الحقيقة، أن نفتح الغلاف على الغلاف، والجماعة على الجماعة، أن نفتح الحلم على الحلم، والرغبة على الرغبة، أن نرى العالم مجموعة من الأحلام والرغبات المختلفة المتضادّة المتنافرة والمختلطة والمتمازجة، "ولو لا إضافة بعضنا إلى بعض ما اجتمعنا ولا افترقنا، ولولا الإضافة بيننا الغالبة ما تفاهمنا ولا تعاونا"[99].

هكذا تجلّت لي الحقيقة كأرض مفتوحة بلا دروب، تلك الحقيقة التي لم أرها في قداسة الجماعة التي تضبط كل حيرة، وتغلّف كل سؤال، وتوحّد كل جواب، وتثبت كل يقين، وترى أنها الأعمق والأفضل والأحقّ والأخصّ، لكني رأيتها في الحيرة، الحيرة التي حررتني من غلافي المقدس، وجعلتني أستأنس بطلب ما تضيفه الحيرة إلى الذات لتثريها.

صرت لا أخشى مع حقيقتي أن أنطق وأنطلق من وجودي كذات، وصرت غير مضطرة أن أزاوج بين قهري وخلاصي، بين جماعتي وحريتي، بين يقيني وشكي، بين تحريض حلمي وتحريض عقلي، صار محرّضي هو حقائق كل العالم.

الهروب الأخير
عندما صار السؤال أكثر رحابة من الحلم ..
أيتها الجماعة: هربت منك لأرى..

98 باولو كويلهو، **مكتوب**.

99 أبوحيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، الليلة الرابعة عشرة.

بداية نشر الحلقات، التقيت أختاً لي من الجماعة (الوحيدة الباقية على اتصالها بي بعد خروجي)، سألتني بعتاب لطيف: لقد حسمت أمرك إلى خارج الجماعة، فلماذا لم تطو هذه الصفحة وتسيري بعيداً عنها وكفى؟ لماذا تكتبين وتنشرين؟!

منذ خرجت عن الجماعة في 2004، شغلني همّ قراءة تجربتي بعمق يمكّنني من فهم السنوات التي قضيتها في الرحم الرمزي لهذه الجماعة. ذلك أن أي انتقالة لا تقدّم فهماً يفسرها ويصلها بما يتبعها، هي في نظري انتقالة ركيكة أو ناقصة أو هامشية.

محاولة الفهم وحدها كفيلة بأن تجعل من تجربتي الخاصة، فراشة تحلّق على سنواتي الستة عشر، بدلاً من أن تمحوها أو تقطعها.

تجارب كل منا هي فراشاته التي يصحبه (أثرها) لأقصى سنيّ حياته، فكل تجربة فراشة. كل تجربة تمتلك فينا قوة تأثير وتغيير وتحويل يفوق حدود حركة جناح بسيطة. التجربة استحالات من طيران الفراشات، استحالات من الآثار، استحالات من الممكنات غير المنتهية وغير المحدودة وغير المتوقعة.

التجربة زمن، والزمن كما يراه بورخيس" هو المادة التي أنا مصنوع منها"، ومادة كل منا تصنعها تجاربه المختلفة، واختلاف التجارب يجعل من (أنا) كل منا مادة مختلفة، تمتزج بزمنه، تختلط بتجربته، تتجادل مع حقيقته وواقعه وحياته، تتآلف مع حركة فراشاته.

كلما تحركت فراشتي ذات جهة، تحولت مادتي، تحولت طينتي، تحولت طبيعتي، تحول خلقي، تحول وجودي، تحول عالمي، تحول كوني، تحولت صورتي، تحولت أناي..

التفكير بالعودة للوراء من أجل اختيار تجربة أخرى، هي عودة لا تمنحنا (نحن الآن) بل تمنحنا (نحن آخر) تصنعه تجربة أخرى لم نعشها بعد.

الذين يقيمون علاقة قطع مع ماضيهم وتجاربهم باعتبارها ماضياً يستحق الطي أو النسيان، هؤلاء يحرمون أنفسهم فرصة أن يأتلفوا مع حركة فراشاتهم، أن يصنعوا مادتهم المتفردة، أن يرووا تحولاتهم المتعمقة، والخاصة.

تمر التجربة وتصبح ماضياً، ويبقى الأثر ليقول الماضي ويقول التجربة ويقول الذات ويقول الجماعة ويقول المجتمع ويقول الثقافة ويقول العالم، نحن نقول تجربتنا بأثرها فينا، فنؤثر فيها كما أثرت فينا.

وحدها الكتابة، هي أداتي التي أستطيع من خلالها أن أفهم حركة الفراش المعقّدة التي ضربت فيّ طويلاً، وحدها الكتابة أستطيع بها أن أقول زمني؛ المادة التي صنعتني خلال هذه السنوات، أن أعرف قيمة هذا الزمن، أن أقيم معه علاقة وصل واتصال.

وحدها الكتابة تجعلني لا (أطوي هذه الصفحة وأسير بعيداً عنها وكفى)، بل أفتح هذه الصفحة لأسير انطلاقاً منها.. وكفى..

أثناء تدويني لتجربتي .. وصلتني رسالة من الجماعة عبر بريد أختي الكبرى (سابقاً)، سأنقلها كاملة كما وردتني، مشفوعة بما تبعها من مراسلة بيني وبينهم..

رسالة (الجماعة):

حين يفلت المرء من أسْر الله إلى عبودية الأنا وارتهان الدُّنى، ظانّا أنه تخيّر السبيل وتحرّر. حين يُمزَّق ويُخرَّق ظانّا أنّه قد اخترق الأرض، بلغ الجبال طولا، مزّق أسوار الأقدار. حين يُحتنك بحسبان أنّه قد صار بشدّة الاحتناك محتّك الجولات والتجارب، نترحّم عليه لمحبّتنا، ونأسف. نتذكّر احتناك آدم، فاختراق آدم، فتحرّر آدم، محمولاً كالقشّة المتراقصة خارج أسوار (القداسة) .. مُطوَّحاً به أسفل وادي طُوى، فاقداً سلامه الداخلي وأمنه وصلته العليا، مملوّاً بالوحشة .. ويشقى.

ربّما استطْعمَ آدمُنا التموجّات المحيطيّة الجديدة لحظاته الأولى، تفتّحت أحاسيسُ سفلى لم تكُ له قبلاً فتدغدغ، لكنّ رحْمَ الدنيا بمعاصره لا يرحم منضغطا، وقد يجثم يوماً كثقل القبر، إذّاك يقول آدم، في الملمّة المقفرة إذْ تَفزَّع؛ يا ليتني اتّخذت مع الرسول سبيلا! يا ليتني لم أتّخذ فلانا خليلا! لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني!! فمسكينٌ آدم، ومساكين أكثر .. أبناؤه وبناته يبيعون عزّ جنّة الخلد .. بارتكاضٍ في مرعى موسم! **(15 نوفمبر 2005)**

جواب (التي خرجت):

ما يظنّه كل منا، هو ما يجعل لكل منا دبيب حركة مختلف على الأرض، هو ما ينوّع هذه الحركات، ويجعلنا نوقن، أنه مهما طال أحدنا أو استطال، فإنه لن يبلغ الجبال طولاً، وأنه لا يكون متحنّكاً متخرِّقاً متحرِّراً، إلا بقدر ما يرى من صغره وقلّتِه وضآلته، في عالم كبير متنوع كثير.

ينظر الإنسان إلى نفسه فيظنّها عالما صغيرا، وينظر الإنسان إلى العالم فيظنّه إنسان كبير، فيتواضع، لأن نفسه، التي كانت تحسب حركتها مطلق الحقيقة، صارت تدرك أنها مجرد شيء صغير من جموع حقائق كثيرة. ويتواضع أكثر، لأنه يرى العالم جريان هذه الأشياء كلها، وضرب من ظنوناتها التي لا تنتهي، "فكلّ شيء يجري في كلّ شيء"، وكلّ ظنّ إنما هو ضرب من دبيب حركة مختلفة على الأرض، تسبق حركته، أو تأتي معها ، أو بعدها، تتقاطع معها، أو تتداخل، أو تتوازى..

لكن يستطيل الظّان، وهو يحسب أنه يبلغ الجبال طولا، حين يحسب أن جَبَلَهُ يطول كلّ العالم، وأن كلّ العالم يقصر عن بلوغ جبله، أو حين يرى أن كلّ العالم يجري ليدخل في جبله، وأن جبله وحده مركز حقائق كل العالم، أو حين يرى أن دبيب حركته هي الصلة المقدسة بالعالم العلوي الآمن، ودبيب حركات الآخرين ليست سوى صلة ضالة بعالم سفلي مقفر موحش. هكذا يناهز الظن الجبل طولاً، لكنه يقصر عن بلوغ طول الإنسان. **(17 نوفمبر 2005)**

رد (الجماعة):

ما كتبتِ يا صديقتنا إلا تفسير ما قُلناه فيك الذي رجونا أن تخيّبي ظنّنا لكنّك أبيْت إلاّ تصديقه، لذلك ترحّمنا عليك!

فمباركةٌ عليك الدنيا والعالم والغيريّة والتنوّع والتلوّن والدبيب.. وانطلاء الخدعة.

وبئس للصامدين صمودهم، وتبا للعاكفين عكوفهم، وبُعدا للمستمسكين نجاتُهم .

ولكن حتّى حين يا عزيزتي، حتّى حين، فكلّ مفتون ملقّنٌ حجّته، حتى تذوب الألوان وتتبخّر السكرة ويزول السحر، سيظهر إنسانُك ومعدنُك الذي نُراهن عليه .

حين لا يبقى إلاّ ما كان في القلب ولا يُؤخذ إلاّ بما ظلّ فيه.

وكما فسّرتِ لنا (الرؤيا) التي رأيناك بها وحدّثناك عنها منذ كذا سنة مشفقين، أنّك تنقبين جدار مدرسة مولانا عليّ، وتنسربين خارجها فرحةً، لتختالي في (عالم كبير) من أزقّة (المخارقة) المُخرّقة.

فلم تأتِ اليوم إلينا لو تمعّنت فيما كتبتِ جواباً بجديد؛ سوى تصديق الرؤيا والظنّ حرفياً، وكفى بذلك بصيرة لمن يرى!

ولكن هاك يا عزيزتنا السابقة أمراً سنفسّره لك غداً، حين تأتين بدبيب متندّم تقولين لهذا الجبل (الظانّ بغشامته وغروره الضحل أنّه يستطيل على كلّ العالم): (ألم أكن معكم؟) فيُجيب من يعرفك منّا وعاشرك بالحسن بحسرته (بلى ولكنّك..) ولكنّك كما ترين حالك الآن، تستكبرين حتّى على نصيحة من سبقت نعمته إليك باستطالة ما وراءها شيء إلاّ غرور اللحظة، فعليك الرحمة والسلام. **(18 نوفمبر 2005)**

جواب (التي خرجت):

كل الحق معكم، فليس فيما كتبتُ اليوم تفسيراً غير ذاك الذي قلته قبل سنوات قليلة، إنه أفقي الذي خرَّق سوري المعرفيّ، دون أن يخترق إنساني الذي عاشركم بحبِ ما عاشرتموه من

الودِّ والمعزّة (السابقة)، وهو مازال يحمل لكم معزّة لم يشأ لها أن تصبح (سابقة)، لمجرد أن خالفت المعزّة الأفق.

نعم، هو ذلك الأفق الذي سأل ذات يوم من أيام معزّته السابقة سؤالاً أو أسئلةً، فلم تجيبوه معرفة تتخرّق أرضه وتتّسع فيها، كما الريح تتخرّق الأرض الواسعة وتتّسع فيها، فالجواب أرض تتّسع بريح السؤال الذي يتخرّقها، كما يتّسع السؤال كلما تخرّقته أرض الجواب. لم تجيبوا على سؤالي معرفة نتّسع بها معاً، أو لا أقل من أن تتّسع بها ريحي أو ارضي وحدها، بل أجبتموني حُلماً.

حُلماً جعل السؤال خرقاً أجوفاً ولعباً وخيلاءً واستكباراً وغروراً، وضرب من (انطواء خدعة) من خدع الدنيا، فلجّم الحلم السؤال، بما لجم من أفق الريح. الريح تتّسع برحابة أكثر، حين تتّسع الأرض أكثر، لكن السؤال الذي اتّسع هنا، ضاق به الحلم، فصار السؤال أكثر رحابة من الحلم الذي لم يحتمل سؤال من لم تخالف معزته الأفق، فكيف به يحتمل سؤال من خالفت معزته الأفق؟

لم يتّسع الحلم لسلامكم الذي أودعتموه أفقي حين بشرتم ب "إسلامٍ عالميٍ"، استبشر به قلبي وظنّه "سلاماً عالمياً"، فاتّسع على الإنسان الكبير(العالم)، وسالَم العالم الصغير (الإنسان)، وامتزج سلام العالم بسلام الإنسان، ورحابة الإنسان برحابة العالم، فذاق لذة لم يذقها من قبل "كل امتزاج لا يعطيك أمراً لم يكن عندك من قبل وجوده لا يعوّل عليه". ابن عربي، وعوّل على ذلك المزج، ورأى العالم والإنسان أكبر من أن يحشرا في داخل سور، أليس العالم والإنسان –كما يرى المتصوفة– مرآة وجود الله الذي انعكست فيه كل صفاته وأسمائه وأفعاله ؟ فهل يحشر كل هذا الوجود المتنوع الكثير في داخل سور؟ وهل يمكن لحلم ضاق عن أن يسع سؤالاً ،أن يتّسع ليشمل العالم بكل تناقضاته واختلافاته وتنوعاته؟

لم يتّسع الحلم ليقبل ما يُعطيه الامتزاج (الاختلاط بالغير دخولاً وخروجاً من السور)، ولم يعوّل على جديد ما يعطيه هذا الامتزاج، فناقض دعواه العالمية بالسلام، وبقى واقفاً في القول دون الفعل، أوليس القول يخرج عن القلب؟ أوليس القلب هو أصل العالم؟، "العالم إنما هو مرآة القلب". الجيلي، فالقلب يرى نفسه عبر مرآته العالم، فما رأى القلب من رحابة يعطيها الامتزاج بالعالم فهي رحابة منه، وما رأى من شرّ محض يؤديه هذا الامتزاج فهو ضيق عليه.

القلب وجه كله، وليس له قفا، يسع القلب ما لا يسعه العالم، فالله الذي لم يسعه كل العالم، وسعه قلب العبد، لذا كان القلب هو الجهة التي ينظر الله منها للإنسان، ومن كان قلبه الله، وكان وجهه الله، فكيف يكون العالم قفاه، أليس العالم وجه الله؟!

وكيف تراه ذلك القلب، الذي انطوت عليه تلك الخدعة، إذا اتسع له قلب العالم، وضاق به قلب الحلم؟ **(20 نوفمبر 2005)**

أو كالتي هربت؟

يحكى أن جماعة من العميان طوّح بهم القدر حتى أنزلهم واديا بعيدا منعزلا تحيط به الجبال الشاهقة الوعرة، فعاشوا فيه، ونسّلوا عميانا مثلهم، وقد عوضهم الخالق عن فقدان أعينهم قوة في آذانهم، وبذلك استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم مدينة توافق حالتهم، ووثقوا كل الثقة بمعارفهم وبمداركهم، وآمنوا أن العالم كله محدود في واديهم وسلسلة جبالهم، وشاء القدر أن ينزل بواديهم رجل بصير، فحدثهم يوما عن السماء وزرقتها, وعن النجوم الساطعة وضيائها، والثلوج المعمّمة للجبال وبياضها، فلم يشكوا أنه مجنون، وجزموا أن ما يحدثهم به ضربٌ من الخداع والوهم، فحاول كل الجهد أن يفهمهم أنهم عميان فاقدوا البصر، وانه بصير، فلم يزدهم ذلك إلا إمعانا في الضحك منه والسخرية به، قالوا: لو كان في رأس هذا الرجل عقل لتخلى عن أوهامه، ووجه همته إلى الحياة الواقعية، وقوى سمعه حتى بلغ مبلغنا، واتبع طريقتنا وسار على النهج الذي أجمعنا عليه. فلما أعياهم أمره قرروا أن فساد عقله يرجع إلى هاتين النافذتين في وجهه واللتين يزعم الإبصار بهما، وانه لا شفاء له إلا بفقئهما. لكن الرجل استطاع أن يجد منفذا للهرب من ذلك الوادي قبل أن يتمكنوا من عينيه.

أيتها الجماعة..

لست أزعم أني أرى ما لا ترين، لست أنصح لك أو أعيب عليك، لست أتّهم عماك أو أبرِّئ عينيك، لستُ أعيبك حديثاً عن خارج، منعتك جبالك أن تريه، لِتَعيبيني حديثاً عن داخل، شاطرتُك ذائقته وقاسمتك أوديته عمراً..

لكني هربت من جبالك، وفررت من أوديتك، أطلب عينين لم تفقأهما يداي.. لأرى..

هربت كي أرى العالم من نافذتين تخالطان الخارج فتختلطان بإنسانه دون خوف، وتمازجانه دون أن ترى الخارج محض لعب واستهتار وظلام وضلال، هربت أنشد حقيقة لا تحدها الجبال ولا يحصّنها جدار الغلاف، هربت أنشد معرفة لا يطويها الممر الآمن للحركة فيحصرها فيه، هربت أطلب حقيقة غير ساكنة في بحيرة، حقيقة لا تزعجها حصيات السؤال، هربت بسؤالي، كي أفتح حقيقتي على حقيقة العالم فأجمع نفسي عليه، فأتسع فيه وبه ومعه، لأرى في كل هذا الاجتماع، طرق تأخذني إلى الله، بعدد أنفاس الخلائق..

ضوء الهروب

كل تجربة فراشة

أثر الفراشة

"في الفيزياء يوجد شيء اسمه أثر الفراشة (Butterfly effect) فلو طنت فراشة في منغوليا قد يحدث إعصار في سان فرانسيسكو، لأن الكون وعاء واحد، يقوم على سلاسل سببية لا نهائية، من عناصر شتى تتبادل التأثير". خالص جلبي

" قيل أن شيئاً بسيطاً، كرفرفة جناحي فراشة، يمكن أن يسبب دماراً، في أقصى أنحاء العالم"، بهذه المقولة، التي جاز لبطل الفيلم أن يسميها بالنظرية العبثية، تسللنا بتوتر ممزوج بالإثارة إلى داخل فيلم "تأثير الفراشة" (The Butterfly Effect)، لنعيش مع إيفان تريبورن (كتشر)، ممكنات ما قد تسببه حركة جناحي الفراشة في مستقبل حياته.

يروي الفيلم قصة الطفل (كتشر)، الذي تعرض في السابعة من عمره لتجارب صادمة، أثرت على تركيزه وذاكرته وتوازنه، مما دفع والدته إلى عرضه على طبيب نفسي نصحها بجعل (كتشر) يقوم بكتابة تقرير يومي عن نشاطه حتى يمكن الاستعانة به في تحفيز ذاكرته في المستقبل.

عودة غير منقذة

بعد ثلاثة عشر عاما أصبح (كتشر) مدرِّسا بكلية علم النفس، لكنه بقي متأثراً بتجاربه التي مرت عليه، وبقى يعاني من ذكريات طفولته المزعجة، يحاول كتشر العودة بذاكرته للوراء، ليتعرف إلى تفاصيله التي كانت شبه ممسوحة من ذاكرته. خلال عودته لقراءة مذكراته المكتوبة، وجد نفسه يعود بقوة في الزمن الماضي، يحضر في كل الأحداث المؤلمة التي لم يستطع استيعابها في ذاكرته الصغيرة حينذاك. سرعان ما أدرك أنه أصبح قادراً عبر قراءته لتلك المذكرات، أن يجسد طفولته من جديد. أن يعيش أحداثها من جديد. أن يغير مواقفه ويبدل ردود أفعاله في التجارب التي مرت به. أن يمنع الكثير من الأحداث المضطربة قبل حدوثها.

لكنه لم يكن يعلم، خلال تلك الانتقالات، أن كل تغيير لماضيه؛ يحدث تغييراً في مستقبله أيضاً. وأن كل عودة للماضي؛ تنقذ من ماضيه شيئاً، وتفقده شيئاً آخر. وأن كل ارتجاعة للوراء؛ تخرجه من تعاسة، لتدخله في تعاسة أخرى لم تكن موجودة من قبل.

لم يكن مستقبل (كتشر) الشاب يدرك، أنه لا يمكن تصحيح ماضي (كتشر) الطفل تصحيحاً كاملاً، وأنه ليس من شيء يصحح إلا ويأتي على حساب شيء صحيح آخر، وأن في كل حقيقة جديدة هناك جانب مظلم غير ذاك المظلم في الحقيقة الأخرى، وأننا نكتشف الزوايا المظلمة في كل حقيقة، بقدر ما نتيح لأنفسنا أن نتنقل عبرها، لا بقدر ما نبقى فيها، وأن كل فراشة تتحرك بجناحيها هاهنا، قادرة على أن تنتج حركة مختلفة ها هناك، أن تحرك حقيقة جديدة في حياة (كتشر)، أن تكشف زاوية مظلمة في حقيقتنا.

كل تجربة فراشة

تجارب كل منا إذن، هي فراشاته التي يصحبه (أثرها) لأقصى سني حياته. لا فرق هنا بين تجارب الطفولة وتجارب البلوغ، بين التجارب البسيطة والتجارب المركّبة، بين التجارب التي نذهب إليها بأنفسنا: برغبتنا، بإرادتنا، بقناعتنا، بتفكيرنا، وبين تلك التي تفرض علينا: تفرضها ثقافة، يفرضها مجتمع، يفرضها نسق، يفرضها نظام، تفرضها حاجة.

لا فرق بين أن تكون هذه التجارب تجارب مؤلمة أو مبهجة، تافهة أو جادة، مخجلة أو مشرفة، مرحلية أو عمرية، تقليدية أو متحررة، عاقلة أو مجنونة، نسقية أو منفلتة، عرفية أو منشقة. فكل تجربة فراشة.

الأثر الذي تنجزه التجربة (الفراشة) يكمن في قدرته على تدمير الأماكن المعطوبة، الرثة، الخربة, البالية، المتخلخلة، المهترئة في داخلنا. فعل التدمير هذا، رغم عنفه الظاهر، إلا أنه يتيح لأماكن أخرى مهملة أو مسكوت عنها أو غير مفكر فيها أن يبدأ عمرانها، أن تدب فيها الحياة والحركة، أن يلتفت لها، كما يسمح لتجارب جديدة (حركات فراشة جديدة) أن تدب فينا.

كل تجربة فراشة، وهذا يقتضي أن تملك كل تجربة قوة تأثير وتغيير وإنجاز وتحويل وإمكان وتفكيك يفوق حدود ملكيتها الذاتية، فكل فراشة تملك في ذاتها ما لا تملكه في غيرها، كذلك التجربة تملك في ذاتها ما لا تملكه في غيرها، التجربة استحالات من الطيران (طيران الفراشات)، استحالات من الآثار، استحالات من الممكنات غير المنتهية.

عودات كثيرة

تجارب كتشر المتعددة، هي ما كان يتحرك معنا خلال الفيلم بأكمله، كانت كل عودة للماضي تجربة جديدة، لأن العودة إلى التجربة القديمة هي بذاتها تجربة جديدة. عودات (كتشر)

المتعددة إلى الماضي كانت تتيح له التنقل عبر الحقائق المختلفة، تتيح له أن يعرف، أن ما من صورة كاملة هناك، وما من انتقاله تستحق البقاء مطلقاً، وما من حركة إلا وبها نقص من وجه أو خلل من جهة أو خطأ من وجهة.

كل عودة (لكتشر) تنجز فعلاً مختلفاً وتترك أثراً مختلفاً، لكن ليس من أثر حصل فيه (كتشر) على ما يريد من تصحيح وكمال واستقرار، الأمر الذي جعله يصل في النهاية، إلى أن يختار واقعا واحدا فقط يتعامل معه كما هو، يصحح أخطاءه انطلاقاً منه، ويجعل من فراشته تجربة حية، يحملها معه بقوة إلى الأمام، لتدفعه، ليتصحح بها بدلاً من أن يصححها.

لعل هذا التصحيح هو ما يعنيه باشلار حين يقول" إن الحقيقة خطأ مصحح"، فالتصحيح هنا ليس عودة إلى الماضي من أجل التغيير أو التعويض أو التعديل، وليس هو منع (جناحي الفراشة) من الحركة، ليس هو قتل الفراشة أو سحقها أو حبس حركتها، ليس هو بدءاً من الصفر، بل هو تصحيح (الأثر) بتراكمات التجارب وتنوعها، هو التعامل مع الواقع من خلال هذا (التراكم) بكل خطايا التجارب، بكل عبثيتها، بكل سذاجتها، بكل جهالتها، بكل ظلامتها، بكل نقصها، بكل ألمها أو عنفها أو شدتها. الحقيقة تجربة مصححة، ذلك أن التجربة خطَّاءة بطبعها، وهذا هو سر إبداعها، فالإبداع كما يقول سكوت آدمز "هو أن تسمح لنفسك أن تخطئ والفن هو أن تعرف أي الأخطاء تبقى معك".

الفن هو ما يبقى

ما يبقى معنا من التجارب هو الفن، أو لنقل ما يبقى معنا من الأخطاء هو الفن، فهل هناك فن بدون تجربة؟! وهل هناك فن بدون أخطاء؟!. تكون التجربة فراشة مبدعة، بقدر ما تتيح لنا أن نخطئ، وبقدر ما تبقي معنا ما نعدِّل به واقعنا، نصحح مفاهيمنا، نجدد أفكارنا، نحول حقائقنا، نوسع نظرتنا للعالم والحياة والإنسان.

تجاربنا المتعددة، فراشاتنا، حقائقنا، هي وحدها القادرة على أن ترينا إيانا كل يوم بشكل مختلف، بمعنى مختلف، بضوء مختلف، تماماً كما نار الفتيلة في قول النظَّام أحد شيوخ المعتزلة " إن النار التي في الفتيلة لا تثبت طرفة عين، وإن ما يرى منها في كل وقت غير ما رئي في الذي قبله". وفتيلة كل منا هي إمكان التغيير المستمر فيه، هي القادرة على أن ترينا إيانا بصور كثيرة، أن تعددنا أمامنا، أن ترينا ذواتنا خارجنا، تعكس آثارنا على جدران غرفنا المظلمة، أن تضيء الزمان لنا (الماضي) لتملأ بنا المكان (الحاضر).

أنا مختلفة

التجربة زمن، والزمن كما يراه بورخيس" هو المادة التي أنا مصنوع منها"، ومادة كل منا تكونها تجاربه المختلفة، واختلاف التجارب يجعل من (أنا) كل منا مادة مختلفة، تمتزج بزمنه، تختلط بتجربته، تتجادل مع حقيقته، تتآلف مع حركة فراشته، "الزمن نهر يجرفني، لكني أنا النهر، الزمن نمر يفتك بي، لكني أنا النمر، وهو نار تحرقني ، لكني أنا النار"، وكأن بورخيس يقول، أنه كلما تحركت فراشتي تحولت مادتي، تحولت طينتي، تحولت طبيعتي، تحول خلقي، تحول وجودي، تحول عالمي، تحول كوني، تحولت صورتي ، تحولت أناي، فأكون نهراً، أو أصير نمراً، أو ناراً، أو فراشةً، أو فتيلةً..

وخارج التجربة التي يعيشها كل منا ليست أية قيمة للزمن ولا المادة. العودة للوراء من أجل التصحيح عودة لا تمنحنا (نحن الآن) بل تمنحنا (نحن آخر) تصنعه تجربة أخرى لم نعشها بعد.

نحن لا نمارس خروجا على تجاربنا، فليس شيئاً منها يغادرنا، بل هي كلٌ يعمل فينا بكلِّه. نحن نخرج عن القيود والأسوار، ندمِّر الأنظمة والأفكار، نغالب الأنساق والأوهام، نتحرر من التقاليد والمسلمات، وتبقى التجربة فينا ثراء يقيِّم كل تحولاتنا وتبدلاتنا وخروجاتنا، شيئاً ينقلنا من طور إلى طور. تبقى التجربة وحدها شيئ يستحق أن نعيشه بما يكفي لأن نتذكره ونرويه.

قصة أثر

تمر التجربة وتصبح ماضياً، ويبقى الأثر ليقول الماضي ويقول التجربة ويقول السيرة ويقول المجتمع ويقول الثقافة ويقول العالم. نحن نقول تجربتنا بأثرها فينا. نؤثر فيها كما أثرت فينا. لعل هذا ما يشير إليه جورج ماي حين يقول "إن الكثير مما وضعه الكتاب من سير ذاتية يبدو لنا قصة لآثارهم بقدر ما هو قصة لحياتهم، إن لم نقل إنها قصة آثار أكثر مما هي قصة حياة".

إن الذين يقيمون علاقة قطع مع ماضيهم وتجارهم باعتبارها "ماض مخجل"، أو "زمن ضائع"، أو "نظام فاشل" أو "وهم سخيف" أو "مرحلة فاشلة" أو " فكر بليد" " أو "تجربة مذلة" أو "...الخ، هؤلاء يحرمون أنفسهم من متعة التعدد داخل الحقائق الكثيرة، يحرمون أنفسهم متعةَ مراقصة جناح الفراشة التي تخترق بأثرها الزمان، ويحرمون أنفسهم مراقصةَ لهب الفتيلة التي تملأ بضوئها المكان!

عُنفُ الفَراش..

هل يمكن لحركة جناح فراشة صغيرة، أن تسبِّب خلافاً وفتنة وعنفاً ومحنةً وقسوةً وقتلاً ودماً وموتاً؟

في أواخر العهد الأموي، يختلف "واصل بن عطاء" ذات حلقة درس، مع أستاذه "الحسن البصري" حول حكم مرتكب الكبيرة. يقوم واصل معتزلاً إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد، ليقرّر ما يجيب به على جماعة من أصحاب الحسن. يقول الحسن: اعتزل عنا واصل. يسمى واصل وأصحابه منذ ذلك اليوم "المعتزلة".

تعتزل (فراشة واصل) رأياً واحداً. تنشق على إثرها جماعة جديدة. تنفرد فيما بعد بمنظومتها الخاصة من العقائد والأفكار والأصول. تصبح الفراشة فرقة من فراش.

تقرّ (فراشة الحسن) اعتراض واصل في عبارة ثلاثية "اعتزل عنا واصل"، فتقطع هذه العبارة واصلاً، تفصل فراشته عن حلقة البصري ابتداءً، لتفصله عن منظومة الجماعة فيما بعد، وتتحوّل حركة واصل الصغيرة، إلى حركة اعتزال كبيرة، تسمى فيما بعد معتزلة. تصبح حركة الفراشة شِقّاً لا يتصل طرفاه.

تشتد الفرقة بين المسلمين، وتتحول حركة الفراشة البسيطة (اعتزال واصل وعزل الحسن) إلى حركة اختلاف عنيفة. تدخل المعتزلة طرفاً في صراع السلطة الأموي، وتصير مقولتها بخلق القرآن محنة يمتحن بها المأمون شعبه، ويصبح سؤال المحنة سيفاً يعتزل رقاب من لا يقول بها.

يتعنّف أثر الفراشة أكثر، ويتعنّف القول بالخلق والابتداء، ثم ينتهي بها لأن تُحارَب وتكفرّ وتستباح وتقتل، وتحرق كتبها (فراشاتها التي تقول كلامها)، فتُمحى ولا يبقى من أثرها، إلا ما حفظته كتب خصومها.

الكون الكبير، هو وعاء حركات فراشات صغيرة تكبر فيه. تشتدّ عبر تفاعلاته. تصير عنفاً أو تصير سلماً. تصير ناراً أو نوراً. تصير موتاً أو حياة. فالكون كما يقول خالص جلبي هو "وعاء واحد، يقوم على سلاسل سببية لا نهائية، من عناصر شتّى تتبادل التأثير"

وعاء الكون هو ذلك التفاعل غير المنته من حركات الفراش المختلفة. وما ينتجه هذا الوعاء، هو أثر تفاعل حركات أجنحتها. هي آثار تشبه اختلاف واصل مع الحسن. هو تأثير حركة كل منهما على الآخر، هو تأثرهما بحركات فراشات سابقة، وتأثيرهما على واقعهما، وأثرهما في حركات فراشات لاحقة.

حركة الفراش..

"رأى قوم الفراش يتهافت على المصباح، وتحترق أجنحته في وهج النور، فقالوا: ما أغباه! أما آن له أن يتعلّم من تجربته، والتجربة أكبر معلّم؟ ألا يكف عن إعادة المحاولة أو يتوب.

ورأى قوم آخرون ذاك الفراش ينجذب إلى حتفه ويموت احتراقاً، فقالوا: " تقدّس الفراش"، ودعوا ربهم قائلين: " اللهم هب لنا قلوباً كالفراش، تهفو إليك، وتحترق وجداً وشوقاً على أعتابك". ذلك أن كل قوم قالوا ما بداخلهم، ورأوا في المثل المضروب حقيقة ذواتهم"..

حركة الفراش هي تلك المثيرة للجدل، هي حركة ملتبسة عصيّة متمنّعة يشتبك فيها ألف ضوء وظلام. حركة تأوّلها الذوات المختلفة بحقيقتها فتقول حقيقتها فيها. يراها البعض إثماً وغباءً وتعالياً وحرقاً، ويراها الآخر تقديساً ووجداً وشوقاً واحتراقاً. تختلف الذوات في أن تراها ناراً أو نوراً، فتتعدّد وجوه الفراش، وتصير لكل فراشة ألف حقيقة، وتصير لكل حركة من حركاتها ألف ضوء.

ما نعرفه عن تاريخ المعتزلة هو ما نقل إلينا من خصومها، وما تحفظه الكتب مساجلاتها الكلامية هو ما أخذ من هذه الكتب. نقرأ اليوم ضوء هذه الحركة من خلال الذوات التي عاصرتها وخاصمتها فقالتها، لا من خلال فراشتها نفسها، لأنها مُنعت من أن تصل الينا. وسواءُ وسمت هذه الحركة بأنها شقّ ابتداع وفتنة وضلال، أوُ وسمت بأنها معارضة فكرية مثقفة عالمة، فإن أحداً لا يختلف على أثرها الكبير في حركة الثقافة العربية الاسلامية لزمن طويل.

نختلف اليوم في تحديد ما إذا كانت حركة فراشة ما هنا أو هناك، هي حركة تهافت أو تدافع، حركة نار أو نور، حركة حرق أو احتراق، "حركة كفاية" أو زيادة، حركة طائفة أم طائفية، حركة "حركة حق" أو "لنا الحق"، حركة "وفاق" أم اختلاف، حركة "مرجعية فقيه" أم رجوع لذات، حركة دين أو دنيا، حركة حقيقة أو حقيقة ذوات، حركة مقدّس أو تقديس ذات..

لكن لا يمكننا أن نختلف في أثر هذه الحركات، فيما ينشأ عنها من تفاعلات متتابعة، من ارهاصات ومحن وفتن، من سلاسل سببة تتبع الفعل برد الفعل، من حروب معسكرات ولافتات وشوارع وشعارات، من تطوّفات طائفية تطوّق أجنحة الفراش، من قول يريك الزيادة وقول يريك النقصان. تلك التأثيرات الممتدة بلا انقطاع في وعاء المجتمع الواحد، في وعاء إنسانه الواحد المختلف.

فراشة اتصال

"التاريخ خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم" ابن خلدون

كانت لحظة نزول الانسان على سطح القمر لحظة حركة بامتياز، كانت حركة فراشة جمعت بين الفضائين الغريبين، وقرّبت بين المكانين المتباعدين. أنسنت الحيز متوحش بين الكوكبين. هذه الحركة جعلت الإنسان يتصادق مع طبيعة مجهولة مخيفة، جعلت من القمر مكاناً مألوفاً، معروفاً، ومُشاهداً.

يمكننا أن نفهم الزمن إذن، بقياس تلك اللحظة المتحركة التي فتحت للانسان باب اتصال جديد وفهم جديد وكشف جديد. صارت هذه اللحظة تاريخاً وفتحاً وكشفاً. لحظة النزول إلى القمر فراشة إنسانية جمعت العالم على نفسه.

وإذا كان التاريخ سجلاً لابداعات البشر وسقوطاتهم [1]، أو سجلاً ل "تجارب الأمم" بحسب عبارة ابن مسكويه، فإنه بهذا يكون سجلاً للعلاقات الجديدة التي تنشئها حركات الفراش عبر الزمن.

فكل حركة جديدة يقوم بها الانسان، تنشئ علاقة جديدة مع مكان جديد (لحظة اكتشاف أمريكا)، مع مفهوم جديد (مفهوم الجاذبية)، مع جماعة جديدة (جماعة حركة شعر)، مع فكر جديد (فكر عصر النهضة)، مع إنسان جديد (انسان الحداثة المقابل لانسان العصور الوسطى)، مع ثقافة جديدة (ثقافة ما بعد لحداثة)، مع تاريخ جديد (تاريخ العصر الاسلامي)، فتنشئ زمناً يقول جديداً. فاللزمن هو مجموع حركات الفراش.

وبقدر ما تتسع هذه الحركات، وبقدر ما تتكاثر انتقالات فراشاتها بين الفضاءات المتعددة، تنشط تجاربنا ويتعدد وجه جديدنا ويصير سجل تاريخنا حافلاً بابداعات الانسان.

[1] تقييد المطلق واطلاق المقيد. محمد جواد رضا

فراشة زمن

"الزمن هو المادة التي أنا مصنوع منها" بورخيس.

الزمن هو مجموع لحظات الانسان المتحركة عبر تاريخه، هو محصّلة حركة فراشاته التي تترك اثرها فيه. فاللحظة التي أعلن فيها كوبرنيكوس مركزية الشمس، وأبطل نظرية بطليموس حول مركزية الأرض، هي لحظة مشحونة بحركة الفراش، لحظة مشحونة بالزمن.

أظهرت هذه الحركة فساد النظرة السابقة عن حركات الأجرام السماوية حول الأرض، وهي النظرة التي التزمت بها الكنيسة وأديان أخرى، واعتمدت عليها في تفسير الخلق والكون والحياة.

كان العالم يتحرك وفق لحظة بطليموس، كانت هذه اللحظة متحركة قبل أن تجمّدها لحظة كوبرنيكوس، وقبل أن تؤثر الأخيرة على مفاهيم الحركة والدوران والفلك وتمهّد للنشأة الطبيعية للمجموعة الشمسية وتطوّرها. صار الزمن يتحرّك وفق لحظة كوبرنيكوس، ويقاس بأثر فراشته في تغيير النظرة للعالم والانسان.

زمن كل منا هو عدده غير المتخيل من اللحظات، وحياته تصنعها مجموع لحظاته التي يعيشها. إلا أنه لا بد لكل لحظة معاشة، أن تشتبك بحركة تقولها. اللحظة التي لا تقول حركة، هي لحظة لا يمكن أن تؤرّخنا، لا يمكن أن تصنع تاريخنا، لا يمكن أن تكون مقياساً لزمننا، فهي ليست علامة على الزمن، لأن الزمن هو " قياس الحركة" كما يقول أدونيس. الزمن هو حركة الفراش.

حاربت الكنيسة لحظة كوبرنيكوس وأدانتها، واعتبرتها فراشة هدم وتخريب وهراء وكفر. رفضت الكنيسة أن تحول الأرض من مركز العالم إلى كوكب عادي كباقي الكواكب، فرفضت بالتالي أن تحول لحظتها السابقة (لحظة بطليموس) إلى لحظة حركة جديدة. صارت الكنيسة لحظة سكون.

صدمت لحظة كوبرنيكوس مشاعر المؤمنين الدينية، لأنهم كانوا يجدون في مركزية الأرض تعبيراً عن تكريم الله للانسان، لكنهم لم يجدوا العقل تكريماً من الله للانسان، ولم يجعلوا فراشات الانسان مادّة تعبُر الزمن وتعبِّر عنه.

أوقف هؤلاء الزمن لما أوقفوا الاعتقاد بقدرة الفراش على إحداث التغيير. لم تكن لحظة هؤلاء تقول حركة، كانت لحظة ساكنة لا تقاس، وكل ما لا تقاس حركته ليس علامة على الزمن.

مغايرة الفراش

"تعلمت أن الهوية، إنما ينبغي خلقها وإعادة خلقها باستمرار، ولا ينتهي هذا مع الموت". أدونيس

تسعى كل جماعة أن تتميز عن غيرها من الجماعات. فتنضوي تحت ما تسمّيه هويتها الخاصة التي تضبط أفرادها معاً وتوحدهم وتجمعهم من جهة، وتمايز بينهم وبين غيرهم من جهة أخرى، فالهوية غلاف يفرِّق من أجل أن يُميِّز.

إلا أن الجماعة لا يمكن لها أن تتمايز دون وجود آخر تتمايز عنه، كما لا يمكن لها أن تتمايز عن آخر لا تعرفه، ولا يمكن لها أن تعرف آخر لم تفتح أبوابها عليه.

الجماعة تكتسب هويتها من خلال فراشاتها (تجاربها) التي تصل حركتها بالغير، وصلتها بالغير هي بابها الذي يجعل منها غيراً، فالتمايز هو المغايرة، والمغايرة هي الغير متمايزا، والغير هو ما يُدهش الجماعات ويغيرها ويعاود خلق هويتها باستمرار. من هنا يمكننا أن نقول أن الهوية باعتبارها تمايزاً، هي المغايرة المفتوحة لا المغلقة.

هوية الجماعة هي الإذن الذي تمنحه الجماعة للغير، للدخول إليها والتعرف عليها واكتشافها والاحتكاك بها والتحاور معها والتحدث إليها والتجوال في أنحائها والامتزاج بإنسانها. هو فراشتها التي تفتح فضاءها على فضاء العالم.

الفراشة انشقاق على أسر الهوية المغلقة، انفلات من ضيق فضاء الجماعة الواحدة واستيحاشها وسلطتها واستحكامها واستبدادها ووصايتها، إلى رحاب المغايرة وأنسها وانفتاحها ومرونتها وسعتها. الفراشة هوية ضد المغلق، ضد مغلق الجماعة وضد إحكام الغلاف.

الفراشة ارتحالة الإنسان بين العوالم المختلفة، ارتحالته بين أبواب الجماعات وفوق أسوارها، فوراء كل باب ثمة عالم مغاير، وفي الداخل من كل باب ثمة تاريخ يستحق أن يُعرف، وثمة ذاكرة تستحق أن يشترك معها، وعبر ارتحالات الفراشة، يتصل الإنسان بالجماعات المختلفة ويتواصل معها، ويعيد خلق علاقته بنفسه والآخرين باستمرار.

يعود الانسان بعد كل ارتحالة باب، محمَّلاً بخبرة جديدة وتجربة جديدة وذاكرة جديدة. يخرج من بابه فرداً واحداً، ليعود مضافاً إلى جماعات العالم كلّها. فكأنه يجمع نفسه إلى العالم، أو يجمع العالم إلى نفسه، فتصير جماعتة العالم، ويصير هو فراشة المغايرة المفتوحة على العالم.

ذاكرة الفراش

"ليست الحياة ما عاشه المرء، بل ما يتذكّره وكيف يتذكّره كي يرويه." غابرييل ماركيز

ما الذي يتذكره المرء؟ ما الذي ينساه؟ وكيف يتذكره؟ وكيف يرويه؟

"منذ أن ذقتُ الحساء انتابني شعور بأن عالماً كاملاً كان نائماً واستيقظ في ذاكراتي. مذاقات كانت لي في طفولتي وفقدتها منذ أن غادرت البلدة، كانت تعود لتظهر على حالها مع كل ملعقة وتشد على قلبي...".

ها هو (الحساء) يتحرك في ذاكرة ماركيز كفراشة توقظ ذاكرة مليئة. فكل ملعقة منه توقظ قلباً مشدوداً ومذاقاً خاصاً وطفولة بلدة بكاملها. توقظ عالماً كاملاً وتاريخ ثقافة. "فالثقافة هي ما يبقى بعد أن ننسى كل شيء".

ملعقة حساء صغيرة، قادرة على أن توقظ في داخل أحدنا كل هذه الذاكرة التي تشدّ على القلب، قادرة على أن تبدِّد عيوب ذاكرتنا التي تَنسى، أن تتحول جسراً يفتح ثقافتنا على ذاكرتنا، أن تجسِّر الطريق بين ما لا يُنسى (الثقافة) وبين ما يَنسى (الذاكرة). فأي فراشة هذه الملعقة؟

ملعقة حساء صغيرة قادرة على أن تصل مذاق حساءنا الذي عرفناه قبل أن نغادر حدود بلدتنا الصغيرة الضيقة (الجماعة، الطائفة، المذهب، الدين، العرق، اللون)، بمذاق حساءات العالم المتنوعة، فنشمّ عند فرق الطعم والمذاق والرائحة، ذاكرة تستحق أن نحيا بها لنرويها.

وبقايا الذاكرة، تلك المساحات المتوترة، تغيب لتعود، لكنها حين تعود، لا تعود بنكهتها الأولى، فحساء الطفولة، حين نذوقه كباراً، لا يعود هو حساء الطفولة، بل يعود حساء مختلطاً بصنوف الحساءات الأخرى التي ذقناها عند كل ثقافة، يعود طعمه محمّلاً ببقايا ذاكرة كل صنف من أصنافها، بأثر فراشاتنا التي ارتحلت بذاكرتنا عبر المكان والزمان، يعود الطعم كثيفاً بخبراتها المتعددة الغنية، فريداً بنكهاتها الكثيرة.

ولذا كانت ما تحييه ملعقة حساء (ماركيز) في ذاكرته، هو طعم خاص، يشدّ على عالم ماركيز النائم في قلبه، فيفتحه على مذاق العالم كله.

ما لا يمسكنا..

ليس هناك أخطر من فكرة، يكون الإنسان أسيرها وحدها. إيميلي أوغست

حين نسكن في فكرة واحدة، تصير الفكرة سوراً، وفي السور (أسر)، وفي السور (سر)، فتصير الفكرة (سراً لسور) أو (سوراً لأسر)، تصير سوراً لجماعة أو سراً لنظام، سوراً لثقافة أو سراً لعقيدة، سوراً لحزب أو سراً لشعار، سوراً لطائفة أو سراً لباب ، تصير سوراً ينتج سراً يحجبنا عن أن نخطر خارجه، وليس خطورة أشد من أن نفقد قدرتنا على أن نخطر بأفكارنا باب سورنا، أو أن تخطر أفكارنا سر بابنا..

الأفكار تصيغ علاقة الأفراد بأنفسهم، بالدين، بالمجتمع، بالمختلف، بالمؤتلف، بالعالم، بالسلطة، بالمعرفة، بالقيمة، بالحقيقة، بالواقع، فالفكرة هي " منظومة الروابط التي ينشئها كل واحد مع مفردات وجوده"(علي حرب)، وبقدر ما تربط هذه المنظومة الداخل بالخارج، فإنها تقيم علاقات تصلها بالآخرين، وتتسع للوجود وتوسع من وجودها، وتعبر عن انعتاقها من أسر أن تكون واحدة.

الفكرة التي تصلنا بالآخرين، هي فكرة متعددة، فكرة كثيرة، فكرة يلمع فيها ألف ضوء وألف خرق، وبقدر ما تزداد التماعاتها وخروقاتها تصير فكرة بها نرى..

تكون الفكرة اتصالاً حين تخترقنا لنخترقها، لا لنسكن فيها.. حين تخترقنا بضوئها مرة لنخترقها بأصواتنا ألفاً، حين تكون الفكرة محطة مرور نحو الأفكار الأخرى، لا محطة نزول واستقرار وبقاء.

اتصال الأفكار بعضها ببعض، هو خروج من أسر الفكرة الواحدة (الكاملة، المطلقة، الجامعة، المانعة، الضابطة، المسلَّمة، الثابتة، المصيرية، الأصيلة)، نحو إمكانات الأفكار جميعاً. ويكون تداخل الأفكار تحولاً عن ضلال الحقيقة الواحدة (الكاملة، المطلقة، الجامعة، المانعة، الضابطة، المسلَّمة، الثابتة، المصيرية، الأصيلة) نحو ظلال الحقائق كلها، " أعظم الاتصال دخول الظلال في الظلال" (ابن عربي).

الفكرة الحية والخصبة إذن، هي ليست مرآة الحقيقة، بل ما تعدد من مرايا الحقيقة. وليست هي ما نمسك به، بل ما ينفلت من بين أيدينا ونعجز عن الإمساك به، وليست هي ما نعيش فيه، بل ما نتصل في فيئ ظلاله ونتداخل ونتشابك. أعظم الاتصال أن نكون ظلالاً ندخل في كل شيء ولا يمسكنا (يأسرنا) شيء!

غبار الضجيج

" توضأ باشتعالك ولا تكن تحت سلطة الضجيج" السهروردي.

الضجيج والضوء كلاهما يملآن الهواء. لكن شتان ما بين الضوء الضجيج.

يتخلل الضوء الهواء في هدوء، فيُظهر غير الواضح من أشيائه، يكشفها ويعرِّفها ويفضح خفاءها ويُرينا تفاصيلها الدقيقة. بينما يعتلي الضجيج بصخبه الفضاء، فيريك تفاصيل الأشياء ويزعجها ويضللها ويموهها ويخفيها ويهزها ويشاغبنا أن نراها.

الضوء نقاوة تخترق الهواء والضجيج عتامة تخنق نقاوته. الضوء تسلل أبيض والضجيج ضوضاء تلوث البياض. الضوء مخالطة واثقة والضجيج مزايلة مرتبكة. الضوء همس لطيف والضجيج صراخ فجّ. الضوء مساءلة ساطعة والضجيج هروب من السطوع. الضوء فصاحة الأشكال كلها والضجيج رطانة الشكل الواحد. الضوء بيان والضجيج عجمة. الضوء وضوء نشتعل به والضجيج جَلَبَة نفزع منها.

يحاصرنا الضوء ليرينا من أنفسنا ما لم نكن نرى، يهيؤنا لاستشراف صورة لم نمسك بها بعد، يجعلنا نقف عندها بتأمل وهدوء، يحرك –بتمعنه فينا– سواكن أبصارنا وجوامد أفكارنا، يكسر –بانبعاثه منا– صناديق عقولنا المغلقة، يشعل فينا فهماً جديداً ورؤية جديدة وحساً جديداً ونفساً جديداً وذائقة جديدة، يملؤنا بألوانه المتعددة، فيحررنا من عتمة الضوضاء، عتمة اللون الواحد.

أما الضجيج فهو ضوضاء مرتبكة، هو هيجان وغضب، توتر وانفعال، تهويش واصطدام، اختلاط وتضارب، جلبة وفزع، تخبط وتلبك. الضجيج ليس يشعل سؤالاً ولا ينير إجابة، ليس يقبض على رسم ولا يرسم صورة، ليس يحرك ساكن الجمادات ولا يبدد صمتها، الضجيج ليس سوى ضوضاء صاخبة تثير جلبة فارغة.

الضجيج إمعان في إثارة الغبار الكثيف، إمعان في محاربة الضوء الشفيف، إمعان في تعتيم الهواء اللطيف، إمعان في بلبلة الفضاء النقي. الضوء يخترق غلاف الكون، والضجيج لا يخترق سوى غلاف الحنجرة.

الذين يملؤون الهواء ضجيجاً، هم أولئك الذين لا يستطيعون مجارات قوة الضوء، هم أولئك الذين لا يملكون إجابة يقدمونها بين يدي الضوء، هم الذين يخشون فضح الضوء لتخبطاتهم، هم الذين يخيفهم أثر هدوئه المتسلل بينهم.

الذين يملؤون الهواء ضجيجاً، يحسبون أنهم –بضجيجهم– يلوثون الضوء، لكنهم لا يعرفون أن وحده " **الغبار يملأ أفواه أولئك الذين يملؤون الهواء ضجيجاً**" كما يقول أمين صالح.

لعنة الكتابة

في السنة 870 قبل الميلاد، بداية تعلم (ألفباء) الكتابة، وبداية الكتابة على الورق، صدر قانون في مدينة "أكبر" الفينيقية، يقاضي من يعثر في حوزته على ورق يحمل كتابة غير مختومة من قبل الحاكم أو الكاهن. العقوبة هي حكم قد يصل حد الإعدام.

الكتابة في رواية "الجبل الخامس" لباولو كويلهو، مساحة مخنوقة، لا تتداول في المدينة إلا بترخيص وختم. الأوراق كما يراها حماة المدينة (الحاكم والكاهن) خطر يحدق بالمدينة، لأن "الأوراق تنشر الأفكار، والأفكار قدرة خارقة"، هكذا يقول كاهن المدينة.

ولكي يحد من انتشار أي فكرة تخالف ما ترسخت عليه عقيدة أهل المدينة ويقينياتها الجمعية، كان لا بد من الحد من انتشار الأوراق الدخيلة التي قد تحمل أفكاراً غريبة أو جديدة، أو قد تخالف أعراف القبيلة ومسلّمات حماتها. ذلك أن للكتابة لعنة تشبه لعنة الأنبياء "كما أن الأنبياء لعنة حلت باسرائيل، كذلك الكتابة لعنة حلت بفينيقيا، وهي كالأنبياء، تتسبب في شرور لا مفر منها، ويجب منعها مادام الأمر ممكنا "، هكذا يقول كاهن المدينة أيضاً.

لكن، هل يمكن منع الناس في تلك المدينة من تعلم الكتابة بعد أن صارت كتابتهم الخاصة كتابة غير مقروءة وغير معروفة في الخارج؟ هل يمكن البقاء في نمط كتابة مغلق، وتجاهل (الألفباء) التي صارت كتابة معروفة ومشتركة تقرّب بين الشعوب المختلفة وتسهل تناول وتداول ونقل أفكارها؟ هل يمكن الاستمرار في رفض كتابة جديدة تفتح آفاق فكر جديد وتتيح التعامل مع الداخل والخارج بشكل أكثر حضارية وأكثر انفتاحاً وأكثر تسامحاً وأكثر فهماً وأكثر قبولاً؟

وهل يمكن للناس أن يقبلوا بقرار حماة المدينة، بمنع انتشار أوراق (البردى) الخفيفة التي يسهل الكتابة عليها، كما يسهل طيها وحملها والانتقال بها من مكان لآخر، بعد أن كانوا ينحتون كتابتهم على (الصلصال) الثقيل، ويقومون بنقل الألواح المكتوبة من مكان لآخر بعناء ومشقة شديدين؟

وهل يمكن أن ينجح الكاهن في منع انتشار الأفكار التي يصفها بأنها قدرة خارقة، بمجرد التحكم في تداول الأوراق التي تنشر هذه الأفكار؟ وهل الكتابة هي لعنة وشر وخراب أصاب تلك المدينة الآمنة أم هي بعث جديد لمدينة راكدة؟

وأخيراً، هل يمكن محو آثار الأفكار، حتى وإن عوقب صاحب الكتابة بعقوبة قد تصل إلى حد الاعدام؟

أسئلة لا تنتظر إجابات، فالاجابات هي أيضاً نوع من أنواع مقاضاة السؤال، وعقوبة قد تصل به حد الإعدام..

ثمرة فجّة

"إن مثل الدنيا شجرة، ونحن عليها كالفواكه الفجّة، الفواكه الفجّة تتمسك بالغصون بشدة لعدم نضجها، وبعدما تنضج وتصير حلوة يضعف تشبثها بالأغصان. ان التشدّد والتعصب من عدم النضج". جلال الدين الرومي

المقولة السابقة هي واحدة من التعليقات التي وصلت بريد جريدة "الوقت"، تعقيباً على حلقات الفراشة. تقول فضيلة الموسوي صاحبة الرسالة "ماذا فعلت بي؟ تجربتك جعلتني ساهمة طوال الوقت أفكر، وكأنها تقول لي: آن لكم أن تعيدوا حساباتكم في الحياة، أن تكونوا ذواتكم الحقيقية". وكأن فضيلة تقول، آن للثمرات أن تصير ذواتها الحلوة الناضجة، وأن تتخلى عن فجاجتها الناقصة غير الناضجة.

الثمرة الفجّة هي تلك التي لم تنضج بعد، ولعلّ تسميتها بالفجّة جاءت بسبب طبيعتها القاسية والخشنة والمرة واليابسة، وافتقادها لليونة والطراوة والحلاوة.

لعل الثمرات الفجّة، لا ترى ما يراه ابن عربي حين يقول " رأيت الكون كله شجرة". تلك الشجرة التي يجتمع لها أصل الكون وبها يكون الكون كوناً. تلك الشجرة العظيمة المحملة بالأغصان الكثيفة الغّضة الوارفة. لعل الثمرات الفجة ترى الكون غير ذلك، وربما تقول "رأيت الكون كله غصناً".

لعلها لا تستطيع أن ترى أن أي غصن تتشبث متعلقة به دون غيره من الأغصان، مهما عظم أو قوي أو امتد أو استطال، ما هو غصن واحد من بين ملايين الأغصان التي تتفرع عن تلك الشجرة العظيمة، شجرة الكون.

لعلها لا ترى أنه بقدر ما تتفرع الشجرة، وتختلف أغصانها وتتكاثر وتنتشر وتتعدد وتتداخل وتتشابك وتتعقد وتتمدد، فإن الشجرة تكون أرسخ وجوداً، وأكثر عطاءً، وأقوى حضوراً. تكون الشجرة أذرعاً ممتدة إلى أعالي السماء، كما جذورها أذرعاً ضاربة في عمق الأرض.

لعل هذه الثمرات ترى أن غصنها الذي يحملها ويرعاها ويمدها بالماء والغذاء واالحياة، هو الغصن الأصل، الأول، الأمثل، الأكمل، الأفضل، الأقوى، الأشد، الذي به تزدهر كل الشجرة وتتقوى، وبه تنبعث لها الحياة، وبه تتكاثر ثمراتها وتتلاقح، وعليه تكبر وتقوم وتتقوَّم، وأن باقي الأغصان الملتفة حوله أو المتلاقية معه أو المتداخلة فيه أو المتباعدة عنه أو المتصادمة معه، ما هي إلا أغصان موات قد أهلكها اليبس والجفاف والقطع المستهتر وعوامل الجو العابثة.

لعلها لا ترى أن غصنها ما هو إلا محطة من محطات حياة الثمرة، لكنه ليس غاية حياتها ونهايتها، وأن حياتها الطبيعية كثمرة إنما تسير باتجاه النضج لا البقاء في اللا نضج، وأن النضج إنما يسير باتجاه التحرر من قبضة الغصن لا البقاء في إحكام الغصن، وإلا صار الغصن ليس سوى غصّة وغبن، صار تشبثاً فجّا غليظاً مراً يابساً لا طراوة فيه ولا ماء يضج بالحياة.

لعل هذه الثمرات ترى أنها خارج قبضة غصنها تكون لا شيء، تكون سقطاً أو ساقطاً ينقطع عنها ماء الحياة، لكنها قد تجهل أن التعلق الأبدي بالغصن، مع بلوغ مرحلة النضج الطبيعي، يجعلها تشيخ وتهرم، وهي لم تزل بعد غير قادرة على التعبير عن نضجها الذي بلغته، غير قادرة على الاستقلال بذاتها، على شق طريقها بنفسها فوق أرض الشجرة الكون أو بين حنايا الكون الشجرة.

ولعلنا بعد كل هذه اللعلات (جمع لعل).. نقبل ببساطة أن نرى ثمة ثمرة فجَّة، تتشبث بفجاجة (كونها لم تنضج بعد)، بأحد أغصان شجرة الكون خلال مرحلة هامة من مراحل حياتها، وصولاً إلى نضج معين. لكن ما لا يمكن للعقل قبوله، هو أن تبقى الثمرة فجَّة طوال حياتها، أو أن تبقى أبدية في تعلقها الفجّ، على غصن تبقى تراه وحده كل الشجرة، وغاية ما في الكون.

هامش الهروب

الهامش الأول

سيرة جماعة "الأمر"

حسين مرهون

في عام 1999 تنشطت ذاكرة الجمهور الديني الشيعي في البحرين على أصداء موضوع قديم/ جديد، أعاد إليه الوهج موقع صفحة (الحقيقة) على الإنترنت [1] الذي نشر مجموعة من المقطوعات والخواطر الأدبية المرمّزة، مشفوعة بإعلان عن جائزة لمن يستطيع فكّ رموزها.

وكشف حوار طويل أجراه الزميل علي الديري، مع صاحبة الموقع عن أن هذه المقطوعات تؤشر على تجربة امرأة خارجة لتوّها من تنظيم عقائدي تشكلت نواته داخل سجون البحرين.

كانت ديباجة الحوار تبدأ بهذه الجملة "هذا الحوار يمثل تجربة امرأة لم تتجاوز بعد الثلاثين من عمرها، استطاعت بشجاعتها أن تتغلب على كل المحظورات الاجتماعية؛ لتُسمع صوتها للعالم؛ ولتكن لديك معرفة أوسع بالموضوع عليك أن تتجول في موقع صاحبة التجربة"[2].

لقد تم تداول هذ الحوار الذي أخذ عنوان "تعاقبات العمى والبصيرة" على نطاق واسع جدا في ساحات الإنترنت. وقد أعقبته حوارات مطولة أجرتها صاحبة الموقع عن طريق موقعها، مع مجموعة من الشخصيات، منها الشيخ سليمان المدني، وأحمد الكاتب تناولت فيها فلسفة التنظيم ومجموعة الأفكار والقيم التي يقوم عليها.

وتعود قصة التنظيم (الأمر) أو ما عرف من قبل خصومه بـ(السفارة) إلى عام 1986، حين كانت أجواء السجن في البحرين، تشهد جدالات كبيرة بين الفرقاء الإسلاميين، من تنظيمي حزب الدعوة وحركة الرساليين (تحولت عام 1979 إلى الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين).

كان الصراع بين التنظيمين يدور حول المرجعية والشرعية في الإطار الحركي، فأعضاء حزب الدعوة يدعون إلى مرجعية السيد محمد باقر الصدر ومراجع النجف الآخرين، بينما يدعو أعضاء حركة الرساليين إلى مرجعية شابة أخرى تتسم بالثورية، هي مرجعية السيد محمد الشيرازي.

تبدأ الفكرة، بحلم لأحد الأفراد من حزب الدعوة رأى فيه فاطمة الزهراء (ع) التي أبلغته بصوابية عمل حزب الدعوة وأحقية المنهج الصدري.

توالت الأحلام، وكان مصدرها واحداً، هو عبد الوهاب البصري، وتالياً تطور الأمر؛ حيث استطاع هذا الأخير إقناع زملائه في السجن والقريبين منه أنه يرى الإمام الثاني عشر عند الشيعة المهدي بن الحسن (المنتظر) في الحلم ويرى سفيره الثالث الحسين بن روح.

استمرت الأحلام زهاء عام وبضعة شهور، ولم تكن حينها تخرج عن المألوف والمقبول في العقلانية الشيعية. لكنه من جانب آخر (البصري) استطاع من خلالها أن يكون زعيما وملهما لبعض السجناء، وبعضهم قيادات كبيرة من التنظيمين (الدعوة، والجبهة).

لكن دراما الأحلام لن تلبث وتصل إلى ذروتها بحلم مختلف جداً، حلم لايشبه الأحلام السابقة. وكما يروي سجناء عاصروا الفترة، لقد جاءه الحسين بن روح الذي تقول المصادر

الشيعية إنه السفير الرابع للإمام المهدي، ببشارة الأمر من الإمام. جاءه (في الحلم) حاملاً عمائم خضراء وقلدها الجماعة الذين كانوا معه، كما أوصاهم باتباع رؤى عبد الوهاب البصري.

وبهذا الحلم، أصبح الاتصال بالإمام ممكناً، الأمر الذي قاد إلى انتهاء مرحلة أحلام التثبيت، لتبدأ على إثرها أحلام الأمر والطاعة والإلهام والإخبار عن المغيبات.

في حلم تالٍ، رأى البصري، أنه يحمل تنظيما خاصا أو ما سيعرف بـ"الشجرة التنظيمية"، يقف على رأسه الإمام المهدي ومن تحته الإمام الخميني باب المولى ثم الشيخ المنتظري، ويليه عبد الوهاب البصري الذي عين وكلاء له، ومن بينهم رجلا دين معروفان.

وهكذا، ففي كل ليلة جمعة كان البصري يعتزل إلى نفسه في زنزانته، ليخرج بعد ذلك بقصاصة ورق مكتوب فيها الحلم بعبارات وجمل غريبة تماثل لغة النصوص التاريخية.

وعلى إثر هذه النصوص الواردة من قبل المولى (الإمام المهدي) إلى باب المولى (البصري)، تكونت الحركة الجديدة التي عملت على تنظيم أمرها. كان كل فرد يؤمن بالأحلام التي يراها البصري، ويرى فيها تعليمات من الإمام المهدي [3].

***

أدى تسرب فكرُ هذا التنظيم إلى العلن، خصوصاً لدى خروج الجماعة المؤمنة من السجن، وعددهم 32، بين عامي 1987 و 1988 (أدى) إلى إقبال الساحة البحرينية على إرهاصات اجتماعية ودينية، بعد أن اعتبر ذلك بمثابة خرق للتابو وخروج على الخط السائد للعقلانية الشيعية.

ووصلت هذه الإرهاصات إلى ذروتها، حين نشطت الرموز الكلاسيكية في التيار الديني الشيعي، متوسلةً بآراء فقهاء من حوزتي قم والنجف، لحشْد سيل من الفتاوى الدينية على الساحة، تذهب إلى ضلال هذا التنظيم العقائدي ومروقه عن أيديولوجيا التشيع، كما صير إلى صناعة متخيل جماعي معبأ بكل ما يقطع على إمكانية اختراقه (التنظيم) لصيغة التشيع العام والمؤسسي.

تمثيلات القوة

وقد تشكلت جراء ذلك، شبكة من المفاهيم والمصطلحات التي عملت على التمثيل بهذه الجماعة، وغالباً ما أتت مختومة بدمغة دينية، *من قبيل* مصطلح "السفارة" ويشير الاسم المشتق منه "سفير" إلى صاحب "الأمر" أو "الباب" عبد الوهاب البصري.

وهي تسميات ومشتقات مرفوضة من قبل هذه الجماعة[4]، كما تشير إلى ذلك رابحة الزيرة في حوارها الذي أجراه معها علي الديري في 2001 عبر مجموعة أوال الإلكترونية، فهي تقول "جماعة السفارة تعنى أن هناك شخصاً له اتصال بالإمام فيكون هو الآمر الناهي والبقية لا

دور لهم، وهذه كلها مسمّيات إسقاطية تريد أن تسقط الفكرة بإطلاق هذه التسميات عليها، وإن كان ولابد من تسمية فقل إنها جماعة مؤمنة ، مفكّرة ، لها حضور ودور فاعل في المجتمع .. نحن لسنا تنظيماً ليكون لدينا سلطة هرمية، نحن جماعة مسلمة، ملتزمة بكل أصول الدين وفروعه، تؤمن بالأئمة الاثني عشر، وتؤمن بالإمام القائم بأنه حي، موجود ومتوفّر وليس يستحيل رؤيته أو التشرف بمكالمته (وهذا هو أقسى ما في فكرتنا من تديّن أو بدعة) والاستلهام منه أو الاسترشاد لمن أراد بإخلاص كائنا من كان"[5].

ولهذه التسمية مدلول تاريخي يرتبط بسفراء الإمام المهدي الأربعة الذين تولوا، حسبما تذكر المصادر الشيعية، الوكالة الخاصة عنه خلال غيبته الصغرى عام 260 هـ، وهم على التوالي (عثمان بن سعيد العمري، محمد بن عثمان العمري، الحسين بن روح النوبختي وعلي بن محمد السمري).

وحسبما تقول المصادر أيضاً، فإن مهمة هؤلاء كانت تتلخص "في تهيئة أذهان الأمة وتوعيتها لمفهوم الغيبة الكبرى، وكذلك قيامهم برعاية شؤون القواعد الشعبية للإمام والتوسط بينها، وقد انتفت مهمتهم جراء قيام الغيبة الكبرى 329 هـ".

أيضاً، من ضمن شبكة التمثيلات التي شاعت وقتذاك، هناك مصطلح "البدعة، المبدع" المأخوذ من *الحديث الشريف* "كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار"، وقد تكرر غير مرة في الفتاوى الدينية المُستجلبة لتعزيز فكرة انحراف وضلال دعوى التنظيم.

ومنها أيضا، شاع مصطلح "المقاطعة"؛ حيث ترتبت على هذه الفتاوى أحكام شرعية، تقضي بضرب طوق من العزلة والمقاطعة على معتنقي هذه الفكرة والمذعنين لأمرها.

كما ظهر مصطلح *التعاطف*، المتعاطف" الذي يمكن أن ينطبق على كل من لم يذعن للحكم الشرعي الصادر، وهو في الواقع لايؤشر على المؤمنين بالفكرة، إنما أولئك الذين لم يلتزموا بموقف أو يقاطعوا المتهمين بالارتباط بالتنظيم.

الحيزات المصادرة

أدت ردود الفعل الدينية والاجتماعية *العنيفة* التي قوبل بها أفراد التنظيم، وما لاقوه من صنوف التنكيل التي وصل بعضها إلى حدّ ترهيبهم وعائلاتهم بالسيوف، كما حصل ذلك في موكب للتطبير في السنابس يوم العاشر من محرم عام 1991 (أدت) إلى تعميق عزلة الأعضاء وانطوائهم على أنفسهم، كما والابتعاد عن أية ممارسات ظاهرية يمكن أن تستجرّ نقمة الجمهور المتدين عليهم.

لقد اتجهوا، ونتيجة لاستشراء علاقات السيطرة، إلى صناعة خطاب مستتر يكون بمثابة الفسحة أمام ألسنتهم المقموعة. وكما يخبرنا جيمس سكوت، فإن استشراء علاقات الهيمنة، عادة

ماتدفع المهيمن عليه إلى إنتاج حيز خاص له، يكون بمثابة "المنفس" لكل ما لايستطيع الجهر به في فضاء الحيز العام [6]. وهذا ما استوجب، **أولاً**، أن يسعى أفراد التنظيم إلى إيجاد حيز اجتماعي مُصادَر -بفتح الدال- تكون فيه الرقابة التي يمارسها العقل الجمعي المهيمن أقل قدرة على الوصول إليه، **وثانيًا**، أن يكون هذا الوسط الاجتماعي المصادر مؤلفاً بكامله من أناس موثوقين يتشاطرون ذات الهم وذات الاتجاه وذات القضية.

وأمام هذا الإمعان في التخفي، تحول الوعي بمشخصات التنظيم، في ذهنية الجمهور الديني، إلى طاقة مشلولة، بعد أن استنفد مداه، وتضاءل تأثيره على العقل والوجدان الجماعيين. ومع مجيء أحداث التسعينات 1994، واشتعال خطوط التماس بين السلطة والمعارضة، فإن ملف هذه المسألة قد آل للنسيان أو بدا كذلك على الأقل.

حياة الذاكرة

دفع إعادة بعث هذا الموضوع، إلى إعادة استدعاء ذاكرة كان قد مضى عليها ما يقارب العقد من الزمان.

لقد أحدث ذلك نوعاً من الصدمة على صعيد الجمهور الديني، فضلاً عن رموزه؛ إذ لم يكن في حسبان أحد أن يكون التنظيم يتوفر، بعد كل السنوات التي عاشها في الحصار، على هذا المستوى من الامتداد والاختراق والفائقية التنظيمية.

لكن الصدمة لم تلبث وخفتت بعد أن استنفذت شحنتها، تماماً كما يحدث بالنسبة لأي ظاهرة، تنشأ، فتكبر، فتتضخم، ثم تبدأ في التلاشي والكمون. ساهم في ذلك، أن التيار الديني الشيعي، كان في الوقت الذي نبشت فيه هذه القضية، في وضع لا يحُسد عليه، بعد أن أنهك جراء المواجهات الساخنة التي خاضها مع السلطة.

عودة انتعاش المقموع

عقب التصويت على ميثاق العمل الوطني في فبراير/ شباط 2001، وما تلاه من انفراجة أمنية سمحت بعودة رموز التيار الديني الشيعي وأقطابه المغيبة في السجون والمشردة في المنافي، استعادت الساحة الدينية تماسكها كما قويت شوكتها تنظيميا وأيديولوجيا، بعد عشرات الضربات والاختراقات التي وُجِّهت إليها.

وقد أدت حادثة وقعت في سياق التحركات والمساعي التي نشطت لتأسيس جمعية للمعلمين، على خلفية سماح الدولة بتأسيس الجمعيات المهنية، إلى إعادة تنبيه التيار الديني ودق أجراس النفير لديه، حيال القضية القديمة/ المتجددة التي بدا أن النسيان أو التناسي، ومن قبله المراقبة والمعاقبة، لم يكن كفيلاً بوأدها.

وتشير المعلومات وقتذاك، إلى تحرك مجموعة من المدرسين المنتمين لهذا التنظيم على مشروع لتأسيس جمعية للمعلمين، إلى جانب مشروعين آخرين كانا يتحركان في الإطار نفسه، أحدهما لمدرسين من التيار الديني على علاقة بماعرف بجماعة المبادرة، والآخر كان لمدرسين محسوبين على التيار الوطني الديمقراطي.

وحدثت جراء ذلك، كثير من التحركات والمماحكات، أدت إلى إقصاء مشروع المدرسين المنتمين بعلاقة مع هذا التنظيم، إثر فتوى استرشد بها بعض المنتمين للتيار الديني من الشيخ عيسى أحمد قاسم، الذي حصل في الأعوام الأخيرة، من خلال دراسته في حوزة قم، على رتبة حوزوية عالية، هي "آية الله". وهو ما جعل التنافس على شرف التأسيس يقع بين ممثلين عن التيار الديني السائد وممثلين عن التيار الوطني الديمقراطي فقط.

لقد فهم *البعض* من سعي المدرسين المحسوبين على التنظيم إلى تأسيس جمعية للمعلمين، على أنها رغبة في التخلي عن العوالم المصادرة التي ظل حبيسها طوال عقد من الزمان، وتفكير في اغتنام أجواء الانفراج السياسية الحاصلة لتثبيت حضوره، لكن هذه المرة، بصوت مسموع، وإن كان الأمر في عنوانه الأولي، يبدو مهنياً، أي لايشير من قريب أو بعيد، عن صلة بينه وبين فكر التنظيم وتوجهه العقائدي.

من جانب آخر، لقد أيقظ هذا الحادث قرون الاستشعار لدى التيار الديني الشيعي، فقد التقط بحس الغريزة لديه، هذه الإشارة جيداً؛ إذ لم يكن التنظيم ليجترىء في السنوات القليلة الماضية على البوح بهذا المستوى من الطموح وهذا المستوى من العلنية؛ كما التقط أيضاً الإشارة الصادرة، *والمتعلقة ببعض الخارجين من التنظيم*.

وقد عبرت رسالة تم تداولها عبر البريد الإلكتروني والمنتديات الحوارية عام 2001 عن حس *اليقظة* هذا "إلى كل الأخوة والأخوات (...) يرجى مساعدتنا على جمع أكبر قدر من المعلومات الدقيقة والحقائق الموثقة المتعلقة بجماعة السفارة (تنظيم السفارة في البحرين)؛ حتى يتسنى لنا معالجة القضية بشكل موضوعي وفق الحكم الشرعي وبعيداً عن عناصر الإثارة والهجوم المباشر، وحتى يتسنى لنا توثيق المعلومات ونشرها للعموم بعد مراجعة العلماء والفقهاء الأعلام لإعطاء الحكم الشرعي. أما المعلومات المطلوب جمعها، فهي كل ما يتعلق بجماعة السفارة مثل (أسماء وشخصيات، أماكن ومراكز، رصد لتحركات خفيّة وعلنية، مشاريع اقتصادية أو إسهامات فكرية، شهادات مسجلة أو اعترافات موثقة، فتاوى العلماء والفقهاء..إلخ)" [7].

إلا أنها يقظة لم توقظ العنف، انتهى العنف، واستمرت المقاطعة التي هي عنف في صورة أخرى.

على صعيد التنظيم، فقد بدا أن الطموح في التخفف من الفضاء المقموع والخروج إلى العلن، هو التوجه العام والجديد لأفراده. وقد بان ذلك بوضوح عبر الإعلان عن تأسيس "جمعية

التجديد الثقافية" عام 2002 أو عبر نشاط أعضائه في الكتابة من خلال *المساحات المتاحة* في الصحف المحلية.

السؤال المطروح الآن، ما إذا كانت هناك نية لدى التنظيم أن يتولى، هو بنفسه، إنتاج سردية خاصة به عن تشكله وتشكل ذاته ومفاهيمه، تلك التي لاتقال في الندوات ولا في البيانات ولا في البلاغات ولا في مشاريع السراة، أم أنه *سيترك قول الحكاية* للخارجين وحدهم، وبما لايرضيه أحياناً كثيرة؟

---

[1] عنوان الموقع هو: (http://homepages.msn.com/SpiritSt/nargestareef).

[2] سيرة الذات والجماعة في حوار.. تعاقبات العمى والبصيرة، حوار علي الديري مع نرجس طريف، 1999. وهو حوار غير مطبوع.

[3] السجن لم يكن جدرانا أربعة فقط، بل كان ثقافة بجدران أربعة، وهي ثقافة ينشط فيها المتخيل والغيبي والعجيب. انظر: السفارة وختم السياسة، عباس المرشد، بحث غير منشور. وهو بحث يتضمن تحليلا معمقا لقصة التشكل السجني وثقافة لجماعة الأمر.

[4] راجع بيان جمعية التجديد الذي وزعته على الصحف المحلية، غداة إعلان صحيفة الوقت عن نشرها لملف (كالتي هربت بعينيها.. جماعة السفارة وتشكلات الذات)، والذي بينت فيه موقفها من استخدام مصطلح (سفارة).

[5] حوار مع رابحة الزيرة، أجراه علي الديري، في 2001، منشور عبر مجموعة أوال الإلكترونية. وهو حوار غير مطبوع.

[6] جيمس سكوت، المقاومة بالحيلة، كيف يهمس المحكوم من وراء ظهر الحاكم، تر: إبراهيم العريس، دار الساقي.

[7] لم يظهر من الرسالة اسم المرسل أو الجهة التي تقف خلفها، وتم الاكتفاء بعنوان المراسلة: truthsun@hotmail.com

الهامش الثاني

حلقة حوار حول جماعة الأمر وتشكلات الذات

كيف تشكل ثقافة الخلاص جماعاتها الرمزية؟

تجربة الفراشة في جماعة الأمر نموذجاً

على مدى أسبوعين متوترين بردود الفعل المختلفة، نشرت جريدة الوقت تجربة خروج "باسمة القصاب" من جماعة الأمر التي انخرطت فيها طوال 16عاماً. في مقدمة الحلقة العاشرة كانت صاحبة التجربة تقول مكثفة خلاصة ما انتهت إليه "وحدها الكتابة، هي أداتي التي أستطيع من خلالها أن أفهم حركة الفراش المعقّدة التي ضربت فيّ طويلاً، وحدها الكتابة أستطيع بها أن أقول

زمني؛ المادة التي صنعتني خلال هذه السنوات، أن أعرف قيمة هذا الزمن، أن أقيم معه علاقة وصل واتصال. وحدها الكتابة تجعلني لا (أطوي هذه الصفحة وأسير بعيداً عنها وكفى)، بل أفتح هذه الصفحة لأسير انطلاقاً منها.. وكفى.."

نحن أيضا في جريدة الوقت وجدنا الحوار هو جوهر الكتابة وخلاصتها المكثفة، وحين نفتحه لا تطوى صفحات التجارب، بل تفتح على التلقيات المختلفة والأفكار المتعددة، لذلك يأتي هذا الحوار حول تجربة الفراشة، يشاركنا فيه الدكتور عبدالله يتيم أنثروبولوجي وأكاديمي، والدكتورة منيرة فخرو سوسلوجية وأكاديمية، والدكتورة سوسن كريمي أنثروبولوجية وأكاديمية، ونادر المتروك باحث بقضايا الفكر الإسلامي، وزكريا رضي باحث بقضايا الفكر الإسلامي.

منيرة فخرو:تجربة الفراشة مشوقة للغاية بجرأتها وأسلوبها وأفقها.

يتيم: الكاتبة تملك حساً تحليلياً فائقا في قراءتها لتجربتها، كما أنها تتوفر على مرجعية نظرية قوية أتاحت لها التعمق في التحليل.

سوسن كريمي: التحليل في التجربة غلب السرد الإثنوغرافي.

نادر المتروك: أبدعت التجربة في تفكيك معنى الجماعة.

زكريا رضي: تجربة الفراشة تفضح النظام الرمزي لجماعة الأمر، وهو أخطر ألف مرة من فضح الشخوص وأشبه بالسم اللطيف.

الوقت: نريد التعرف على انطباعاتكم وتلقياتكم الأولى للتجربة.

دكتورة منيرة فخرو: كانت التجربة مشوقة للغاية بجرأتها وأسلوبها وأفقها، وهي مليئة بالمصطلحات الفلسفية وهي تبدو مفتوحة على فلسفات مختلفة وفلاسفة مختلفين منهم التوحيدي وابن عربي، وهي مفتوحة على علماء اجتماع وأنثروبولوجيا وأدباء، وهذا ما جعلها مفتوحة على مستويات كثيرة.

وفي الحقيقة التجربة شدتني كثيرا خصوصا وإن لدي فكرة عن تجارب فتيات أخريات ينحدرن من التجربة نفسها، من موقعي وضّحت لي كيف نستطيع الدخول في خفايا الفلسفة الشيعية بكل فروعها، وقد دفعتني هذه التجربة أن أقرر دراسة الفكر الشيعي وهذه الحركة بشكل مكثف لأنها ما زالت تؤثر فينا وفي مجتمعنا بصورة ما.

نحن بحاجة إلى فهم الآخر، والآخر لا يعني الطائفتين بل يعني الآخر من الطائفة نفسها ومن الجماعات المختلفة.

زكريا رضي: قرأت التجربة بشغف كبير لأن لي علاقة تجمعني بالجماعة نفسها وبالتحديد مع أحد أفراد الجماعة الرئيسين، وقد استغرق حواري معه وقتاً طويلاً إلا أنه لم يكن مكتوبا وبذلك أخذت فكرة عن مجمل أفكار الجماعة ونظامها الرمزي من مصدر معتمد من قبلها.

كان أول بروز للجماعة في المجتمع الشيعي، مع بدء رفع الرسائل التي تطالب بالدعوة إلى الاعتقاد بقداسة الباب وأن الباب هو الموصل إلى الإمام الحجة وقد أثارت هذه الفكرة الكثير من الاعتراضات والفتاوى والتكفيرات واستمر الموقف الديني إلى هذا الوقت، فالجماعة معزولة دينياً وشعبياً برفض مصافحتهم والحديث معهم كونهم ذوي أفكار جريئة ضد الدين، وكان أكثر ما يشغلني هو معرفهم أفكارهم ومعتقداتهم من الداخل.

عندما قرأت الحلقات وجدت جرأة كبيرة، أحسد عليها الكاتبة، اكتشفت أنها استطاعت مراجعة ذاتها، وموقف مراجعة الذات لم يستطع أحد من أفراد الجماعة حتى هذا الوقت أن يفعله، وبهذه المراجعة استطاعت الكاتبة أن تكشف النظام الرمزي الذي قامت عليه الجماعة وهو من أخص أسرار الجماعة، ولم يكن أحد يعلم كيف يعمل هذا النظام وكيف تفكر الجماعة وكيف ينتظمون في نظام هرمي بدءاً من الباب إلى الرابطة المكونة من خمسة أشخاص، ومن ثم الأفراد الآخرين وصولاً إلى الإمام الغائب الإمام الحجة.

تجربة الفراشة تفضح النظام الرمزي لجماعة الأمر، وهو أخطر ألف مرة من فضح الشخوص وأشبه بالسم اللطيف.

ستدفع الكاتبة حتماً نتيجة كشف هذه الأوراق ثمنها الاجتماعي وهو كبير على فتاة تعيش في مجتمع مغلق كمجتمعنا، ولكن السؤال هو هل ستستطيع الانخراط في المجتمع العام بحرية أكبر من ذي قبل؟

د سوسن كريمي: المعلومات التي وصلتني عن هذه الجماعة كلها معلومات سلبية رفضهم من المجتمع ومحاربتهم واتهامهم بالهرطقة وبالخروج عن الدين وتقسيم الخط الشيعي ، ومن أسباب هذه الصورة عن هذه الجماعة، الانطواء والسرية والكتمان، لذلك تكون لدينا الفضول لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذه الجماعة.

كنت مشتاقة للتعرف على كل تفاصيل هذه الجماعة لكني أشعر أن الكاتبة لا تزال تعاني من ذلك الحاجز الذي عاشته لمدة 16 سنة، بدليل أن المعلومات التي ذكرتها في التجربة مازالت قليلة، كنت أتمنى التعرف على علاقاتها مع الناس، وحقيقة الحياة الاجتماعية التي عاصرتها الكاتبة، الاستطراد في التحليل منعها من أن تعطي معلومات أثنوغرافية عن تجربتها.

نادر المتروك: يبدو لي أن هناك نوعا من التصرف المنقى بشدة في كتابة التجربة، كنت أتوقع أن الحلقات ستأخذ المسار الذي ذكرته الأخت سوسن حيث التفاصيل الصغيرة للحياة والسرد الأثنوغرافي، لكن يبدو أن هناك كثيرا من الضغوط وجزءا من التأنيب، لم يكن يحيط

بجماعة الأمر فحسب، ولكن حتى بالنسبة للأفراد أو الأعضاء الذين ارتأوا ممارسة عملية الخروج على هذه الجماعة، وهناك ضغط ترسخ أكثر لأننا مع نهاية الحلقة العاشرة، لم نستطع أن نعثر على جواب، كيف حدث هذا الخروج ؟

هناك حديث عن تحول معرفي وفكري وعن تيارات معرفية أخذتها بعيداً عن بدهيات وعقائد وأنظمة وقدسيات الجماعة، لكن كيف حدث هذا التحول؟ طبيعة السيرة الداخلية التي عاشتها الكاتبة غير موجودة في الحلقات، خصوصا في سنتي التحول قبل فبراير 2004. هناك إشارات ممكن التقاطها، ولكن البعيد عن المكون الشيعي يستعصى عليه أن يمسك بهذه النقاط خصوصا الذي لا يعرف العقائد الموجودة في التكوين الشيعي. بالتالي فهي سيرة فكرية غير مكتملة، لذلك أرى من الضروري إعادة النظر في الترويسة أو العبارات الثابته طوال الحلقات والتي تقول بأنها سيرة فكرية، فأنا أتصور أنها لا تعبر عن سيرة فكرية، لأنها لا توجهني كباحث أو متلقي إلى المحطات الأساسية التي أحدثت التحول والانتقال الفكري، أستطيع التقاط مؤشرات لكنني لا اعرف كيف انفتحت وتفتحت على هذه المراجع الكثيرة والثرية التي تحيل إليها.

مثلاً عندما وصلت في النهاية عند محطة القسم ماهي الخلفية التي دفعت نحو طرح السؤال في الحوار الإلكتروني الذي أشارت إليه؟ أتصور أن هناك مساحة كبيرة من الغموض، ربما يكون السبب يكمن في الحسن الأمني والخوف من النبذ والإقصاء .

دكتور عبدالله يتيم: وأنا أقرأ الفراشة بما هي إعادة قراءة لجماعة الأمر أو ما يعرف بجماعة السفارة، وجدت نفسي أقرأها في سياق أكبر، وهو سياق دفعني إلى أن أضع في اعتباري ما فعلته جريدة الوطن حين بدأت تنشر حلقات من الحركة الدينية في البحرين وبدأت صحف أخرى تنشر تاريخ قصير حول هذه الحركات في البحرين، وهذه في الحقيقة ثمرة من ثمار الانفتاح، ومن المفيد أن تستفيد الصحافة البحرينية من هذا المناخ.

التراث المعاصر الموجود في البحرين لهذه الحركات وغيرها كان له تأثير كبير في الوضع السياسي والاجتماعي في البحرين وللأسف لم تكن هناك إمكانيات لطرقه من قبل الباحثين. الآن على الأقل الصحافة تأتي بها كتجارب متفرقة بتلاوينها المختلفة وذلك بفضل مناخ الحرية الذي ساهم في الكشف عن تفاصيل أكثر ومع الوقت سيفضي الأمر نحو تناول هذه الحركة ببحوث أكثر عمقاً.

من سلبيات عدم الوقوف أمام تجارب الحركة الدينية في البحرين السكوت عن كثير من الممارسات الخاطئة والمواقف السياسية والثقافية السلبية والتي أصبحنا نعيشها في البحرين وتعيشها تجربة العراق ومصر في ظل ازدياد حدة النزاع الديني والطائفي.

في التسعينيات في البحرين كان هناك حدث سياسي وصراع كبير ولكن أداة التحليل ضعيفة والمادة الموجودة محدودة ولم يكن هناك دراسات. بالكاد لدينا كتابات صحفية عن أخطاء

المعارضة ولكنها لم تمس عمق التحولات التي جرت في البحرين منذ السبعينيات وخاصة مع الثورة الإيرانية.

أعود إلى تجربة الفراشة، أتصور أن لدينا تمنيات على الطاولة، هناك من يتمنى من الكاتبة أن تتكلم فقط وتسرد، وهناك من يتمنى أن تسرد وتحلل، وتمنيات وتمنيات.. أرى أن هناك مشكلة في عرض التجربة، إذ إن تحليل التجربة جاء منذ البداية في الحلقات الأولى وبعدها النص، وجاءت الإشكالية في النهاية. كان من الأحرى أن تكون لإشكالية المطروحة في الحلقات الأخيرة مطروحة في البداية، وتثار حولها المشكلة والتساؤلات ثم العرض، الكاتبة تريد أن تكون روائية وتريد أن تحلل العمل في نفس الوقت! ولا يمكن القيام بذلك أبداً كان لها أن تسرد دون الدخول في التحليلات، وهذا ما خلق وضعا غير مريح في القراءة فالتحليل يجعل المتلقي يتوارى خلف الأحداث خاصة أنه من المفترض أن يلتزم بالأدب السيري. إلا أنه يجب الإقرار بأن الكاتبة تملك حساً تحليلياً فائقا في قراءتها لتجربتها، كما أنها تتوفر على مرجعية نظرية قوية أتاحت لها التعمق في التحليل

الوقت: أتمنى أن ننتقل في الحوار إلى محاولة تفسير وفهم، لماذا يكتنف التجربة شيء من الغموض وتختلط فيها السيرة بالتحليل؟ لماذا الجانب الاثنوغرافي يبدو كما تفضلتم شحيحاً، لماذا جاءت التجربة بهذه الصيغة؟ أتمنى أن نتحول من التمني والبحث عن حالة مثالية مسبقة نريد أن تكون التجربة وفق مقاسها، إلى أن نفسرها كما جاءت. ماذا يعني أن تكتب التجربة الذاتية لامرأة في مجتمعات محافظة جدا، مجتمعات تتسم بالغموض والتستر وتضع المحرم على كل شيء؟

نادر المتروك: تجربة الفراشة (باسمة القصاب) داخل "جماعة الأمر" وخارجها، والتي نشرت "الوقت" حلقاتها في الأسبوعين الماضين، تُحيلني إلى موضوع الإصلاح الدّيني مباشرة. ومن المؤسف أن التلقي الشعبوي لهذه التجربة، فيما ألمح، سيأخذ أحد مسارين، إما التهويم على التجربة وتحويلها إلى "انتصار" جديد على جماعةٍ منبوذة من قِبل الجماعة الدينية الأم، أو مؤضعتها في سياق الاختطاف الحداثي والوظيفة الانتقامية للعلوم الإنسانية. ليس ثمة انتصار لطرف على طرف في تجربة "الفراشة"، ولا تحمل القيمة السّردية للتجربة أيّ معنى رسوليٍّ موجّه للدعاية وطلب الانضمام.

ما بأيدينا هو تجربة دينية مركّبة، تخوض فعل الإيمان التلقائي (الروحي) بذات المنظومة الدينية والعقائدية التي يؤمن بها بقية الأتباع، ولكنها تصل إلى المقطع التحوّلي عندما تضع حصيلة الإيمان الروحي أمام بجاحة الأسئلة. الإحساس بالمعبودية والتخليقات الذاتية التي تغمر

أية تجربة دينية من هذا النوع، تظلّ عرضة لمثل هذا المقطع، ونظام الجماعة يعمل عادةً على تجنيب أتباع الإيمان الإقبال على النوافذ التي يمكن أن تفتح التساؤلات وتطلب توضيح الغوامض. يتم ذات من خلال تحريم كتب الضلال، والتخويف من تزعزع الإيمان وتسلل الشك إليه، والتلويح بالعاقبة المرّة للمرتابين ومثيري العبث.

إلا أنّ الاقتراحات الأخرى لدينيين آخرين تقول أمراً آخر. فليس ثمة إمكان لغلق عقل الإنسان وتحجيره، والطريق المثلى لإدارة الإيمان الروحي هو ربطه بالاتجاهات العقلانية في الكلام الإسلامي، حيث إتاحة السؤال وعدّه فريضة لابد منها للتقويم المتجدّد لمنظومة العقائد والبحث عن وسائل الدفاع العقلاني عنها. بغير ذلك ستُكرَّر الجماعات الدينية على نفسها مشاهد التأزم والخروج والإحساس المفارق عن الزمن، وسرعان ما ستتآكل أنظمة النبذ والحماية ولن تُجدي نفعاً أمام شهوة الأسئلة وسطوتها، ووسط اغراءات الخروج ومُكرهاته، ومع تهافت وثوقية الأيديولوجيا وتلفيقاتها.

من هذا الأفق، وقبل أربع سنوات، اقترحتُ والزميل حسين الشعباني؛ إعادة النظر في شكل التعاطي مع تكوينات جماعة "الأمر" الفكرية والاجتماعية، وتشاركنا في وضع رؤية مقترحة بهذا الشأن تبعتها لقاءات مكثفة مع شخصيّاتٍ ذات صلة. كان هناك تردّد في قبول الصّيغة التحليلية والفكرية للرؤية، وكان التوجّه باتجاه تطعيم الأسلوب القديم المُتّبع بملامح تقنية جديدة. والحال، أنّ ذلك خلاف داعي الرؤية البديلة، فالتحصين العقائدي عبر آلية الطرد والجذب مُهدَّد دوماً بنشوء الجماعات الفرعية والانكسار وتطاير "الفراشات"، والخيار الأفضل هاهنا هو إصلاح بناء الدفاع العقائدي وأخذ العِبرة من وقائع الخروج والخروج المضاد. ولكن القِوامة النخبوية في المجتمع لها رأي آخر!

دكتورة منيرة فخرو: لابد أن نشير إلى أن الكاتبة رمت حصاة في مستنقع راكد وحركت أشياء كثيرة بدواخلنا. لقد كانت الكاتبة جريئة، وقوية في طرحها

جمعية البحرين النسائية أكثر حركة نسائية ناجحة من ناحية الاتصال بالخارج والبرامج التي قدمتها قوية لكن عند الرجوع للخلفية السياسية والدينية للجمعية في ظل ما تسرده هذه التجربة، يدفعنا إلى التساؤل والاستغراب ومعاودة التقييم،

زكريا رضي: أتفق مع الدكتور يتيم تمام الاتفاق في أن الكاتبة زاوجت بين التحليل والسرد ولو أنها أبقت على السرد في التجربة بطريقة عفوية لكانت التجربة أكثر تفاعلية لأنها ستوضح الكثير من الأمور الغائبة عن الأذهان عند الناس الآخرين، وقد يكون الأمر مقصودا وقد يكون عفويا، وذلك لأن هذه التنظيمات القائمة على الفكر المغلق لا تكشف أوراقها حتى بعد الخروج بسهولة، لأن الفرد الخارج لا يتاح له أن يعرف كل شيء فيها، وبالتالي لا يتاح له أن يفضح إلا الجانب الذي يعرفه.

لذلك لا نعرف حتى الآن من الحلقات كيف تأتي هذه النصوص من الإمام وعن أي طريق ومن هو الشخص الذي يوصل النص إلى المجموعة، كيف يصل الأمر وكيف يتصل الوكلاء بالأمر وهذه الأسئلة لا أعتقد أنها كانت حاضرة أجوبتها عند الكاتبة وهي تكتب سيرتها في الأمر، هناك المزيد من التفاصيل التي لم يسلط عليها الضوء، خرجنا من الحلقات ولا نعلم ماهو المحرك الحقيقي الذي حرك الكاتبة للخروج من أسر الجماعة، في تجربة نرجس طريف كانت هناك حرية أكبر وتفصيلية أكثر.

بالمناسبة، الفكرة تاريخياً ظهرت في أكثر من دولة تاريخية وأكثر من فترة وظهرت حتى في زمن غياب الإمام في الغيبة الصغرى حيث كان هناك أربع نواب ينوبون عن الإمام الغائب، ظهرت أفكار شبيهة من هذا النوع وادعى أناس في تلك الفترة أنهم ينالون شرف الباب من الإمام وأنهم يستلمون النصوص منه.

التجربة أغفلت جانب أن هناك خلفية سياسية خلف هذه الجماعة باعتبار أن الجماعة تنحدر من تنظيم سياسي هو حزب الدعوة ومن اعتنق الفكرة هم جميعاً أفراد من حزب الدعوة الذين حكم عليهم فترة ما في السجن وبدأت في السجن وتأسست في السجن واعتنقوها في السجن، بعض مصادر الجماعة ذكرت أن هذا الحلم الذي رأوه لم يره شخص بعينه وإنما توافق الجميع على رؤية الحلم بنفس الكيفية ونفس الطريقة. وأشارت الكاتبة أن الحلم يشكل جزءا جوهريا في المسألة وأتذكر حديثي مع أحد المصادر حين سألته كيف بدأتم بثلاثين شخصا وانتهيتم إلى مئة أو مائتين أو أكثر، فقال أن الأمر هو الذي دفعنا إلى التصريح بالدعوة وتبليغ الناس وبعد مواجهة الناس لنا بقوة صدر الأمر بالكتمان ولزوم التقية فالآن هم لا يدعون إلى الأمر بحسب كلامهم.

نادر المتروك: أتصور أن هناك مشكلة ترجع إلى أصل الموضوع والجوهر الأساسي لكتابة هذه السيرة الفكرية بوضع قوسين على السيرة الفكرية ، هناك حديث عن نظام الجماعة الكاتبة تحاول الحديث بشكل اجتماعي تحليلي حول نظام الجماعة وكيف تكونت؟ وهي في هذا المجال أبدعت في وضع ثيمات أساسية فيما يتعلق بمعاني تكون الجماعة، وأود التأكيد على نقطة بأنه حينما بدأت الكاتبة بالدخول في شرح أو تحديد معاني نظام الجماعة، فقد كانت تبدع بشكل ملفت جداً، وأتصور هذا الإبداع جسدته الصور المصاحبة للحلقات وبذلك فإن الكثير من المعاني يمكن استجلاؤها أو إيضاحها وإيجاد معاني رديفة لها بالإحالة على الصور التي تتجلى فيها الفراشة بأشكال مختلفة.

لكن كانت الكاتبة وهي تتحدث عن نظام الجماعة تغفل عن أن النظام الذي تعكف على تفكيكه والوقوف عند بعض معانيه الكبرى هو نفسه النظام الذي يحكم الجماعات الأخرى وحتى المصادر التي مثلت تكوين الجماعة الأم . كيف أفهم تكون هذه الجماعة وبالتالي أفهم خروج

صاحبة السيرة عن هذه الجماعة بشكل مفارق ومختلف عن جماعة أم أو جماعة رئيسية أو جماعة كبرى في المجتمع؟ وما هي الخصوصية التي تمثلها هذه الجماعة ويمثلها الخروج عنها؟ الكثير من القضايا المهمة التي نشرت في الحلقات، لا ترتبط بطبيعة تكوين نظام جماعة الأمر فقط، وعلاقاتها الاجتماعية التي تربطها بالرموز والوكلاء والوساطات.

هناك مسألة ربما تكون هذه التجربة قد أشارت إليها لكنها لم تعالجها، وهي المسألة المتعلقة بالعلاقة بين جماعة الأمر والمؤسسة المدنية التي انخرطت فيها تحت تسمية (جمعية التجديد) كيف يمكن أن نتحدث عن جماعة الأمر بكل معانيها المغلفة والمغلقة والتي يستشف فيها مفهوم الطاعة العمياء وعدم السؤال وقمع الأسئلة بجماعة مدنية مشروعها الأساس وشعارها الكبير هو التجديد وفتح الأسئلة و فك الطلاسم الموجودة لدينا.

سوسن كريمي: لايختار الكاتب دائماً أسلوبه وطريقة طرحه، فطبيعة التجربة التي شكلته، تلعب دوراً ليس فقط في مضمون ما يطرحه، بل حتى في شكل ما يطرحه. ربما نستطيع أن نفسر الشكل الذي أخذته تجربة الفراشة بالإحالة على الطريقة التي تتشكل بها الجماعات الدينية. هناك دراسات سوسيولوجية وانثروبولوجية كثيرة عن هذه الجماعات كيف تبدأ بجماعات صغيرة تحمل أفكارا غير موجودة في المجتمع الأكبر فيتهمها بالهرطقة والهوس، وجماعة (الأمر) كانت مضطرة بطبيعة الحال إلى حماية نفسها وحماية أفكارها وممارساتها للحفاظ على نفسها ووجودها في المجتمع كشيء معاكس للفكر السائد والممارسات السائدة، إذن هل يمكن لتجربة تشكلت في جماعة دينية من هذا النوع، أن تكون واضحة تماما لدرجة اختفاء الغموض؟ أتصور أننا يمكن أن نتفهم الغموض الذي تلمسناه في التجربة بتفهم طبيعة نشأة الجماعات الدينية.

عبدالله يتيم: الكاتبة لا تستطيع أن تقول أنها بصدد كتابة سيرة، ونحن الآن نتحدث عن الوضع المثالي للسيرة الذي من المفترض أن تكون عليه مما خلق أمامنا إشكالية. في أكثر من تجربة هناك أناس خرجوا من جماعات سرية دينية وكتبوا تجاربهم بشكل متخف أو باسم مستعار ويقدمونها في شكل مادة خام غير مقروءة وغير محللة وهي تنتمي في النهاية إلى أدب السيرة، أما تجربة الفراشة فإشكاليتها تنبع من غلبة التحليل فيها على السرد.

تجربة (الأمر) ليست تجربة فردية ولكنها تيار انخرط فيه مجموعة من الشباب بشكل غريب، وهذه الحركة ليست حركة عادية ، ليست حركة الأخوان المسلمين المعروفة تفاصيلها نحن أمام حركة غير معروفة وسرية ويحيط بها الغموض، والمفارقة التي تحتاج إلى تفسير، هي كيف أن

مجتمعا متحضرا ومتمدنا كالبحرين يخرج منه شباب وشابات على مستوى من التأهيل الثقافي والاجتماعي والتعليمي، ويخرطون في تنظيم سري يقوم على فكرة غامضة ومشوشة وغيبية.

هذه الحركة لو صنفناها تصنيف علمي سنجد أنها حركة تنتمي إلى حركات الخلاص والخلاص بالموعود على هيئة المسيح والمنتظر.. وهذه الحركة الموجودة لديها إشكالية في التعامل مع الواقع، فالواقع من وجهة نظرها متأزم على المستوى الجماعي وهو بحاجة إلى إنقاذ وإصلاح جذري، وينتج عن وجهة النظر هذه حالة من الشعور بالاغتراب.

وككل الحركات التي جوهرها هو موضوع الخلاص والمدينة الفاضلة، تعتقد بمجتمع آخر موجود سوف نستطيع صنعه. القرن العشرين شهد حركات خلاصية في العالم الثالث بتلاوين مختلفة. نحن أمام حركة تسير عكس التطور والتقدم التصاعدي حركة ابتدائية وأفرادها يعيشون حالة اغتراب.

زكريا رضي: لكن كيف نوفق بين حالة الاغتراب التي تعيشها هذه الحركة وبين رغبتها في أن تكون ضمن مؤسسات مجتمع مدني فاعل تتحرك ضمنه أنشطتها وفعالياتها؟ أو لنقل كيف يمكن أن ننظر لمؤسسة التجديد وجمعية البحرين النسائية التي تبدو من خلال شكلها وخطابها الظاهري أنها مؤسسة مدنية إلا أن خطابها الداخلي الذي لا تظهره هو نفس الخطاب الذي خرجت منه تجربة الفراشة، وهو خطاب غير مدني بالطبع؟ كأن تجربة الفراشة تطرح بإحراج كبير سؤال المدنية على جمعية التجديد.

عبدالله يتيم: بسبب السرية، ما زلنا غير ممسكين بالقصة وتفاصيلها، الدخول في التفاصيل أكثر يعطينا موقفا أكثر وضوحاً وقدرة على التحليل، لكن الكلام الذي نقوله كما لو كان حلا للخروج من الحالة الملغزة، وربما تكون الصحافة قد فعلت خيراً بفتحها لهذه الملفات، وتجربة الفراشة تكتسب أهميتها أيضا من هذه الزاوية.

ربما يكون الانخراط في المجتمع المدني نتيجة لإصلاح داخلي أو حركة تكتيكية، وربما نتيجة لهذه الحركة، بدأوا يدخلون في ديناميكية الحياة الاجتماعية والسياسية التي كانوا يرفضون الدخول فيها رفضاً مطلقاً، لكننا في ظل شح المعلومات لا نملك إلا أن نخمن.

لكنني أتصور أن هذه التجارب ليست تجارب سعيدة فهي تجربة بها الكثير من المعاناة وتجربة الفراشة مثلا التي امتدت طوال 16 عاما تجربة مؤلمة، ولا شك أنها أخذت من عمرها زهوته وزهرته.

هناك في الوطن العربي والعالم الإسلامي ظواهر سلبية كثيرة والخطر أن تكون هذه الظواهر السلبية ظواهر سياسية واجتماعية تقود إلى التمزق والشقاق الاجتماعي والصراعات الدموية، والمر بالفعل صار يحتاج إلى حركة إصلاح ديني يقوم به رجال الدين أنفسهم. نحن كمثقفين لا نقوم بالإصلاح الديني لا الشيعي لا السني فلسنا رجال دين. وفي ظل ازدياد الخلافات

والمشاكل مع الثقافات والديانات الأخرى لا بد أن نصر على أهمية الإصلاح الديني اليوم وليس غداً.

منيرة فخرو: بل إن الأزمة موجودة في مجتمع أكثر انفتاحا على جميع المستويات وهو المجتمع الأمريكي فهم ينتظرون الخلاص وينتظرون قدوم المسيح المنتظر .. الخ وهم متكونون من فئات بسيطة من الطبقة الوسطى. هذه الظاهرة موجودة في كل المجتمعات، وربما تكون الحقبة القمعية عندنا مسئولة عن تكون جماعاتنا الخلاصية، وأنا متفائلة جدا بسبب تجربة الفراشة، إذ إنها تعني فيما تعنيه أننا قادرون على مراجعة ذواتنا وقراءتها قراءة تاريخية واجتماعية وتخليصها من قهر الواقع السياسي والاجتماعي الذي عاشته تحت أوهام خلاصية غير واقعية.

نادر المتروك: في ظل وجود جماعة من هذا النوع تتبنى أجندة سرية مغلقة أو نظاما رمزيا مغلقا ومدنياً ظاهرا. هذا يعني أن الدور المدني دور مكمل للنظام الرمزي الذي يعتقد به وبالتالي فهي تعمل وفق خطة وأجندة مرسومة وخطوات محددة في الوصول إلى أهداف تريد الوصول إليها وليس بالضرورة أن تكون هذه الأهداف غرضها الاصطدام بالمجتمع أو ممارسة العنف فيه بل قد يكون غرضها تثبيت هذا النظام الرمزي بشكل أوسع عن طريق الانخراط أكثر في المجتمع.

بشكل مختصر جداً، أنا أختلف مع الدكتور في قسوته المدنية من جهة نظرته للجماعات الخلاصية بشكل عام وجماعة الأمر بشكل خاص، لم أكن أتوقع تبريرا انثروبولوجيا للجماعة ولا أتوقع انخداعا مدنيا بسبب لبوسها المؤسسي، لكن أتصور بأن الجماعات الخلاصية في حالة تحولات، وفي التحولات تطير فراشات كثيرة. حين ندرس التحولات نستطيع أن نفهم كيف تنتقل الجماعة من جماعة تقليدية يحكمها النظام التقليدي كجماعة دينية أو ما شابه إلى النظام المدني أو النظام المؤسسي. كالانتقال من الخفاء للظهور أو الانتقال من الخلاص إلى التجديد أو الانتقال من لاهوت التحرير إلى لاهوت التجديد.

حالات الانتقال تزامن الطور الأخير لمعظم جماعات الخلاص الديني تحديداً ولذلك يمكن أن نرصد الكثير من التحول الذي حصل في الجماعات الدينية المتأخرة في أصولها وانطلاقاتها بنوع من التسامح والعفوية والحب والقبول وهذا الاعتقاد مهم جداً. ولي أن أتساءل كيف يمكن أن تنتقل جماعة دينية في طور مدني عام وهل أن الانتقالات الأخرى التي تحدث في الجماعات الأم تساعد على إحداث انتقالة داخلية بالنسبة لهذه الجماعات الدينية، بمعنى آخر هل من الصحيح أن نتحدث عن رحم عذري كما عبرت صاحبة السيرة؟

عبد الله يتيم: أنا لا أقسو على الحركة , لكن الصحيح على أرض الواقع أن هذه الحركة كحركة خلاصية موجودة، هي غير معزولة عن أن حركات أخرى بل هي جزء من نسق عام إقليمي وقومي ولا ننسى أن هذه الحركات مهما كانت تتميز بالمثالية إلا أنها تُستهدف ضمن صراع المصالح والقوى وبنية السلطة والقوة في أي منطقة.

الوقت: ماذا تعني تجربة الفراشة على صعيد المجتمع البحريني؟

زكريا رضي : تجربة جريئة من نوعها وطرحها للرأي العام بهذا الصدق فيه فتح كبير. لذلك اعتبر هذا النوع من التجارب مميز وأتمنى أن يشجع تجارب أخرى مماثلة، قد يمنعها خجل الموقف والجماعة التي تحد من انطلاقها واعترافاتها.

نادر المتروك: هذا الموضوع يعيد طرح موضوع مضمر أو يعتقد في الذهن الشيعي العام أنه موضوع منتهي لكن من جانب آخر يعتقد أنه بدءاً من ظهور جمعية التجديد فإن هذه الجماعة بدأت تعيد طرح نفسها من جديد وبدأت تبحث عن لبوس جديد يلاءم المرحلة والظرف المتحول العام من الناحية المدنية لكن بنفس القوالب الذهنية و أنظمة الجماعة القديمة، فهل أن حلقات السيرة الفكرية للفراشة سوف ينظر إليها على أنه انتصار إلى عودة الجماعة من جديد في لبوسها المدني وأن هناك تجربة أخرى من تجارب الخروج ظهرت، وهل بحكم طبيعة المجتمع الشيعي سينظر إلى هذه التجربة (بدون قراءة التفاصيل) إلى أنها قضية قذف وتشهير بالجماعة على الرغم من أن تجربة الفراشة لا تنطلق من هذه الزاوية. يبقى السؤال مفتوحا في كيفية التلقي.

سوسن كريمي: كنت سعيدة بقراءة تجربة الفراشة وأتمنى أن تكون هذه التجربة مدخلاً يفتح الباب للتعرف على المزيد من التجارب وأشدد على ضرورة أن يكون هناك سرد لهذه التجارب من ناحية انثروبولوجية واجتماعية، وما أشدد عليه أكثر هو أن قراءة التجارب يخلق لدينا نوعا من قبول التعرف على تجارب الآخرين دون حساسية وأحكام مسبقة، وبقراءة هذه التجارب سنسعى لتقبل الحركات الدينية والسياسية بمختلف توجهاتها دون أن نكون في حالة حرب أو خلاف معها. لكن الأهم من كل ذلك أن تجربة الفراشة نقلت (الأمر) من الحقل الديني إلى الحقل الثقافي، ويكفيها صنعاً أنها فعلت ذلك بمهارة فائقة.

عبد الله يتيم: نتمنى من مختلف وسائل النشر أن تتيح المزيد من المساحة لاطلاع الناس على هذه التجارب لمنحنا فرصة لفهم ما يعتمل في مجتمعنا من حركات وثقافات وتصورات.

منيرة فخرو: تجربة الفراشة هي حركة تجديد حقيقية، الفراشة خرجت من الشرنقة وبدأت في الانطلاق، وهي تنتقل من فكرة إلى فكرة حيث تجارب الآخرين الغنية وحيث العالم رحاباً بالتنوع.